سلمى الحفّار الكزبري

البرتقال المرّ

رواية

طبعة جديدة

البرتقال المـــرّ

سلمى الحفّار الكزبري

البرتقال المــرّ

الطبعة الثانية

بيروت / ١٩٩٩م

المقدمة

لا ريب في أن للرواية مكانتها المميّزة في أدبنا العربي الحديث، ولكن تجربتي معها لم تتجاوز كتابة روايتين نشرتُ الأولى منهما عام ١٩٦٥، وكانت من وحي إقامتي في إسبانيا، وتعرّفي إلى الأندلس وطباع أهلها، فصدرت تحت عنوان "عينان من إشبيلية" عن دار الكاتب العربي في بيروت. ثم نشرت الثانية بعنوان: "البرتقال المرّ" فصدرت عن دار النهار للنشر عام ١٩٧٥، وهي التي أقدّمها للقراء مجدّداً لأن عنوانها يشير إلى القضية الفلسطينية، بل إلى المأساة الفلسطينية التي آلمتنا، نحن العرب في كل مكان، وما زالت تقلقنا منذ أن اغتصبت إسرائيل هذا البلد العزيز، وشرّدت أعداداً كبيرة من سكانه الأصليين. إن عنوانها يرمز إلى برتقال يافا وبياراته الخصبة، ومضمونها يصف معاناة الشبان الذين وُلدوا في فلسطين ثم غادروها قسراً وهم يحملون في قلوبهم ذكرياتهم الأثيرة وأحلام طفولتهم، والحنين إلى كلّ بقعةٍ ترعرعوا فيها أينما وُجدوا.

ولما كان الكاتب مرآة عصره فقد عالجت، في هذه الرواية المأساة التي حلّت بأبناء فلسطين وبناتها في هجرتهم المريرة لأنها تمسّنا، نحن العرب الأحرار في الصميم، ولأنها تشكل وصمة عار في تاريخ صانعي القرارات الذين أعلنوا شرعة حقوق الإنسان في هيئة الأمم قبل خمسين عاماً، ولم يحترموها ولم يطبقوها... لقد ضاعت حقوق الشعوب الضعيفة كافةً في عالمِ اليوم، وأضحت بكلّ ألمٍ وتأسّفٍ، حبراً على الورق!

تسلمت رسائل متعددة من أدباء وباحثين ونقاد في إثر نشر "البرتقال المرّ"، منها دراسة مستفيضة من أستاذ كبير هو الدكتور جبرائيل جبور، استهلّها بقوله:

(فرغت من قراءة روايتك "البرتقال المرّ" منـذ قليـل، وكنـت ، في أثناء قراءتي لها، أدوّن على حواشيها ـ شأني فيما أقرأ من كتبٍ تخصّني ـ بعض الملاحظات، أو أرسم بعض الخطوط تحت السطور أو المواقف التي تستثير إعجابي. فلما تعدّدت المواقف توقّفت عن التعليق، وقلت في نفسي، حبّذا لو كانت كلّ سيدةٍ في بلادي تقرأ هذا الكتاب. ماذا أقول؟ إني أزعـم أنـه لـو عُمّمـت مثـل هـذه الآراء بمثـل هـذه الحريّـة والصراحـة، منـذ أن أصبحنا مسؤولين عن مقدّراتنا، ولو كان عند المربّين والمربيات الذيـن تولّـوا تربية النشء منذ مطلع عهدنا الإستقلالي مثل هذا التفكير الحرّ النـاضج لمـا أضعنا هذه القطع الغالية من وطننا).

وفي مقطعٍ آخـر مـن رسالته الـتي أعـتزّ بـها كثـيراً قـال لي الدكتـور جبور، رحمه الله، مؤلف الكتاب القيّم: "حبّ عمر بن أبي ربيعة وشعره":

(ولعلّ من أهم المشاكل التي حاولت إثارتـها ومعالجتـها مشـكلة هجرة الأدمغة ـ هجـرة العلمـاء العـرب الذيـن يُسّـرَ لهـم أن يتخصّصوا في الغرب فآثروا البقاء في المهجر على العـودة إلى أوطانـهم لأن بلادهـم طغـت عليها السياسة والجهالة، فحالت دون وصولهم إلى المراكز الـتي يجـب أن يشغلوها بحكم تخصّصهم وكفاءاتهم، أو لأن من بيدهم مقـدرات البـلاد لم يدركوا بعدُ أن التقدم العلمي والتقني الصحيح هو الأساس في نهضـة الأمـم ورقيّها، وعلوّ مكانتها).

فعسى أن يجد القراء الأعزاء في هذه الرواية ما وجده فيها المفكـر الدكتور جبرائيل جبور من متعةٍ، وتصويرٍ واقعي جـريء لأوضاعنـا وعللنـا المستعصية، والله من وراء القصد.

بيروت ربيع ١٩٩٩

سلمى الحفار الكزبري

إلى زوجي نادر،

وإلى كل مؤمن مثله بالحق والحرية.

يا شـامُ عِطْـرُ سـريـرَتـي   حُـبٌّ لِجَمْرَتِـهِ التهـابْ،
أَنْتِ اللُّبـانَـةُ فـي الجَـوَا   نِـحِ، لا النُّـوارُ ولا الرَّبـابْ،
لَـكِ مُهْـجَتي، وَقَبـولُهـا   مِنْـكِ الهَدِيَّـةُ والثَّـواب.

بدوي الجبل

كليفلاند في ٢ آذار ١٩٧٣

إني على أهبة الرجوع إلى الوطن. ست سنوات ونصف سنة انقضت عليّ وأنا مقيم في الولايات المتحدة دون أن أشعر بوطأتها، انقضت حقاً بلا ضجر ولا تثاؤب. تخصصت في الجراحة العامة أولاً، ثم في جراحة القلب، واستعذبت التعب والسهر لأني نلت أمنيتي بهذا الاختصاص. تعرفت هنا، في مدينة "كليفلاند" وفي جامعتها برجال ونساء، أميركيين وغير أميركيين، وأعجبت بعلمهم، وصدقهم، وتنظيمهم. الأساتذة والزملاء، والرفيقات والزميلات، على اختلاف جنسياتهم، فرضوا عليّ احترامهم، وتولدت بيني وبين بعضهم صداقة متينة ساعدتني على تحمل الغربة أولاً، ثم الصدمة التي هزّتني في أثر حرب حزيران، هذه الحرب التي تعارف العالم على تسميتها : "حرب الأيام الستة ".

تعلمت في هذه البلاد أشياء كثيرة، ومن أهمها تقدير الوقت، والإخلاص للعمل، واحترام الناس جميعاً، على اختلاف نزعاتهم وأديانهم، ما داموا مهذبين، فما زالت للإنسان، في هذه البلاد قيمة وكرامة، كما أن حريته مصونة ومقدسة. أتحدث عن انطباعاتي الشخصية، ولا أريد أن أعمِّم الأحكام عندما أقول إنه ما

زالت للإنسان قيمة وكرامة في هذه البلاد لأني أعلم جيداً ما يلاقي الزنوج من اضطهاد وظلم في بعض الولايات الأميركية، وأتألم كثيراً للتفرقة العنصرية، وأستغربها في بلاد تدّعي الرقي الإنساني، وتفتح صدرها لمعالجة حقوق الإنسان، وتتبجح بصيانتها، فنحن العرب لا نفرق بين بيض وسود، لا دينياً ولا اجتماعياً ولا سياسياً، ولا يوجد لعبارة: (تمييز عنصري) مكان في عرفنا.

إني على مشارف الثلاثين من عمري، أتحرق شوقاً إلى العودة لأن حنيني إلى دمشق، مدينتي، وإلى سورية وكل بقعة من العالم العربي حنين ملح، يشدني إلى الماضي، ويشدني إلى الحاضر والمستقبل، فلماذا لا أستجيب له؟ أحبًّا بالدولارات، أم خوفاً من الجندية؟ لقد عرضوا عليّ عملاً مغرياً في أحد مشافي ولاية (أوهايو): أن أصبح مساعداً لرئيس قسم الجراحة، وأتقاضى مبلغ ألفين وخمسمائة دولار شهرياً، وتعويضاً إضافياً للسكن، ولكني رفضت التعاقد.

ترى هل رفضت بدافع البطر؟ بكل تأكيد أقول: لا! فأنا شاب لا أملك ثروة، ولكني لست محتاجاً إلى أحد. مات أبي قبل تخرجي من جامعة دمشق بأشهر قليلة، ولم يخلف لي ولأمي ولأخويّ نبيل وبشار وأختي هدى، سوى البيت المتواضع الذي نسكنه، ومرتب تقاعد ضئيل لأنه كان موظفاً في وزارة الزراعة منذ مطلع شبابه. غير أني أشعر اليوم بالغنى والاستغناء لما أحمل من درجات الاختصاص، ومن طموح وآمال، ولا بد من الإيضاح بأنني جئت إلى الولايات المتحدة الأميركية في

أيلول سنة ١٩٦٦ على نفقة أمي، فإن لها مورداً جيداً من مخزنين في سوق الحميدية، ورثتهما عن أبيها، فمكنها ريعهما، من دفع أجور سفري فقط، ثم تكفلت أنا بنفقاتي هنا حيث أن الأطباء يتقاضون مرتباً شهرياً في أثناء تخصصهم في الجامعات. وقد كان لأمي ولنا أسهم في شركة الغزل والنسيج الوطنية منذ تأسيس تلك الشركة الصناعية المساهمة، غير أنه لم يبق لها من تلك الأسهم، سوى ذكراها المؤلمة: سندات كبيرة، جميلة، ما زالت محفوظة في خزانتها تشهد على ملكيتها الجزئية في الشركة الوطنية التي تأممت، مع سائر الشركات الصناعية في سورية، في عام ١٩٦١، وما زال صغار المساهمين فيها ينتظرون التعويض حتى اليوم. إذن لم أرفض التعاقد مع الأميركيين بدافع البطر، لأني لا أملك غير مبلغ خمسة آلاف دولار، هو ما ادخرته من عملي على مدى السنين الخالية.

يوم غادرت دمشق كان أخي نبيل يدرس الصيدلة في جامعتنا، وقد تخرج صيدلياً في سنة ٦٨، وأدّى خدمة العلم قبل أن يفتح صيدلية في بلدة دوما، بالقرب من دمشق. أما بشار فإنه الوحيد في أسرتنا الذي يشغل بالي، إذ لا صبر له على الدراسة مثلنا، في حين أن صغيرتنا هدى أوشكت أن تتخرج من كلية التجارة في جامعة دمشق. الفارق في السن بين كل واحد منا، نحن الأربعة، ثلاث سنوات، فأنا الولد البكر في أسرتي، ولو لم أكن شديد الولع بالطب، منذ صغري، ولو لم ينصح أساتذتي أهلي بضرورة إيفادي للتخصص بالجراحة لما أتيحت لي فرصة الانتساب إلى

هذه الجامعة العظيمة التي أحبها حقاً، أعني جامعة "كليفلاند". كنت قد راسلت عدة جامعات في انكلترا وأميركا، بعد تخرجي من جامعة دمشق، وكانت "كليفلاند" أول جامعة قبلتني، لذا أسرعت بالمجيء إليها، وأسرعت أكثر بتعلم اللغة الانكليزية التي كنت ألمّ بها إلماماً بسيطاً جداً، فإن ما نتلقاه من دروس لتعلم لغة ثانية في بلادنا سواء في مرحلة الدراسة الثانوية، أو في كليات الجامعة، قليل، لا يكفي لمعرفتها جيداً، ويتطلب منا، نحن الطلاب، جهوداً فردية كبيرة للتمكن من اللغات الأجنبية، لا سيما في مراحل التخصص.

سألت نفسي، في الآونة الأخيرة، عما إذا كنت قد رفضت التعاقد بدافع التعصب القومي، فكان الجواب سلبياً، في بادىء الأمر، لقناعتي بأن الطب عمل إنساني، مزاولته في سورية أو رومانيا، أو اليابان، أو أي مكان آخر في العالم خدمة مفيدة، ولأني ظننت أن الفوارق بين بلاد العالم في يومنا الحاضر أوشكت أن تزول، ثم فكرت بعمق فتنبهت إلى حقيقة مرة، وهي أن الفوارق بين بلد وبلد، بين أمة وأمة، ما زالت كبيرة، وأن الإنسانية قد تفنى من الوجود قبل أن تتوحد في أسرة متضامنة. فقلت لنفسي مجدداً: إياك أن تخطىء في الحساب يا عصام! دعك من المثالية المفرطة، والأحلام الذهبية لأنها أعجز من أن تشيد بيتاً، وأعلم بأن الولايات المتحدة لو لم تكن في حاجة إلى المزيد من الأطباء لما أغرتك وأغرت أمثالك من ذوي الاختصاص الناجحين بالعمل فيها، ولا تنس أن

سورية وسائر البـلاد العربيـة في حاجـة أكـبر إلى الأطبـاء المختصـين، فواجبك إذن يحتم عليك الرجوع إليها، لتخـدم فيهـا. لقـد صممـت على العودة بعد تفكير طويل وقناعة تامة بما سمعت وقـرأت، هنـا وهنـاك، عـن خطر "هجرة الأدمغة" من وطننا العربي، كما تعارف المفكرون على تسمية نزوح الشباب المتعلم. اقتنعت بأن عودة أمثالي الشـباب الذيـن تخصصـــوا في سائر العلوم في الغرب، وهم يعدون بالألوف لا بالمئات، واجب مقـدس عليهم لكي يسهموا في سد الثغـرات، ورفـع المستويات، لأن وطننـا يجتـاز مرحلة النمو والبناء، ويعيش فترة نضال مصيري خطير، ولـم يخطـىء مـن قال إن رجوع الشباب العربي إلى وطنه يزيد في ثروته وقوته لأنه هـو رأس المال الحقيقي، ولأن هجرته هي التي أفقرت بلاده وأخّرت تقدمها العلمي، إن لم نقل زادت في تخلفها.

أما عن الجندية فلا أخفي إنها عقبة كبيرة تعترض طريقي وطريـق أمثالي، لا لذاتها، فخدمة العلم واجب علينا مقـدس، ولكـن لطـول مدتهـا المقررة: عامان ونصف العام، ثلاثون شهراً بطولها، ربما تمتـد إلى أربعـين أو أكثر، بلا ضابط أو قانون، فأنت وحظك أيها الشاب! ماذا قلـت؟ الحـظ؟ لا! يجب أن أمحو هذه العبـارة مـن مذكرتـي لأنـي لا أؤمـن بـالحظ، أعنـي بمفهومنا السائر للحظ، ومغالاتنا في الاتكال عليه. لقد آمنت به في الماضي، يوم كنت مراهقاً صغـيراً نشـأ في مجتمـع الحريـم، وسـمع منهـن التعليقـات المتوالية عن نجاح هذا الرجل وإخفاق ذاك، وعن سعد هذه المرأة ونحس

تلك، فكن يعزون الأمور والنتائج إلى حسن الحظ وسوئه. لقد تأثرت يومئذ بتلك الأحاديث، بل تخدَّرت بها، فبتُّ أعتقد أن الحظ شبح ساحر يغدق نعمه على من يصطفي من خلق اللّه، ويحرم منها من يشاء، ولكني كبرت وتعلمت فتحررت، بل شفيت من أثر تلك المخدرات، وصرت أعتقد أننا مسؤولون عن حظوظنا في حياتنا، إلى حد كبير، وذلك لقدرتنا على صنعها بالعمل المخلص، والإرادة والمثابرة. أما إذا عاكستنا الظروف، أقصد إذا عدمنا مثلاً الوساطة من أصحاب النفوذ، بعد الفراغ من تأدية الخدمة العسكرية بمدتها المقررة، واضطر أحدنا لقضاء سنة إضافية أو أكثر قبل أن يسرّح منها فلا الحظ هو المسؤول ولا نحن، ولا القدر، ولكننا مع ذلك نلوم الحظ ولا نفكر بالعلة. مسكين الحظ في بلادنا لشدّ ما نظلمه إذ نحمِّله مسؤولية نكباتنا، ونحن غافلون عن إننا نظلم عقولنا في آن واحد لأننا نمنعها من التبصر بالأمور بمنطق سليم، فنحول دون وثبتها الحضارية المرجوة بسبب تسلط أمثال تلك المعتقدات على تفكيرنا. وعلى الرغم من هذا كله فإني مصمم على العودة قريباً إلى بلادي، لعل كوني طبيباً يمكنني من قضاء مدة خدمة العلم بالقرب من دمشق فأكون قريباً من أمي وإخوتي الذين طال أمد غيابي عنهم، وأمسوا في حاجة إلى وجودي معهم.

زارتني أمي قبل ثلاثة أعوام فأكبرت أقدامها على السفر الطويل لأنها لا تعرف أية لغة أجنبية. اعتمدت على نباهتها وتوصيات شركة الطيران بها، وعلى قصاصات ورق حملتها وكتب عليها اسمها بالأحرف

اللاتينية وعنواني هنا، ورقم الطائرة التي حملتها من دمشق إلى لندن ثم نيويورك. أمي ما زالت شابة دون الخمسين إذ تزوجت، كسائر أمهات جيلي، في سن مبكرة، وهذا ما حرمها من متابعة الدراسة يوم بلغت الثالثة عشرة! لقد أحضرت إليَّ يومئذ بعض الأطعمة التي أعدتها في دمشق فشكرت لها ما تحملت من عناء في الاعداد والنقل، ثم أخبرتها بأننا نجد هنا جميع ما يلزم لتهيئة الطعام الشرقي. أعجبت أمي بعظمة الولايات المتحدة، وبجمال الولاية التي أسكن فيها وبنظافتها، وأذكر أني قمت معها بجولة في المناطق الجبلية والساحلية القريبة من "أوهايو" غير أنها آثرت التنزه في حدائق كليفلاند الرائعة، كحديقة الورد، وحديقة الحيوان، لأن التجوال في السيارة كان يرعبها لشدة الزحام، على الرغم من اعترافها بسيادة النظام في جميع الطرقات. وأذكر أن إعجابها بخبز هذه البلاد كان كبيراً، وكثيراً ما كانت تعبر عنه عندما تمرّ أمام مخبز، فيبدو أن الخبز في سورية أصبح يشكل معضلة حياتية لا لفقدانه، بل لسوء الحنطة وطريقة صنعها. لقد بتنا نفتقر إلى القمح الجيد في أسواقنا بسبب بيع محصولنا منه لقاء ما نستورد من أسلحة، فأصبح السوريون السعداء هم الذين يتمكنون من شراء خبزهم من لبنان، كلما سنحت لهم الفرصة بذلك.

نقلتني أمي خلال الشهر الذي قضته معي إلى دمشق وأجوائها، وحدثتني عن أخوتي وأهلي، وأصدقائي، فازداد حنيني إليهم، وعاهدت نفسي على مضاعفة الجهود في الدراسة لكي أفرغ منها، دون تأخر، وأنعم

بالرجوع إليهم. إن لي عمة وحيدة، أحبها وأحب أولادها كثيراً، فهي وزوجها، وولداها غازي ومنى، أقرب الناس إلى قلبي لأن سلوكهم في البيت والمجتمع، وما يتحلون به من عزة نفس وذكاء، وحب للعلم والعمل، يفرض الحب والاحترام. لكم أنا سأكون سعيداً بلقاء منى، ابنة عمتي، قبل أن أغادر هذه البلاد، فهي مقيمة في مدينة "فيلاديلفيا" منذ سنتين للتخصص بالأدب الانكليزي، ولكن فرصة اللقاء لم تتح بعد لنا.

كليفلاند في ١٩٧٣/٣/٩

اتصلت بي منى صباح هذا اليوم فأعلمتها بعزمي على العودة إلى دمشق في الشهر المقبل، كما رجوتها أن تقترح الزمان والمكان المناسبين لها لنقضي بضعة أيام معاً، فوعدت. نقلت إليّ أخباراً سارة عن أبويها وأخيها غازي، وعن تقدمها في موضوع اختصاصها فارتحت لما سمعت، وقضيت يومي كله أفكر بمنى، وبعمتي، والدتها، وبطفولتنا وذكرياتها الحلوة والمرة، فكأن جرس صوتها الصافي، صفاء فكرها، أشعل جذوة تلك الذكريات، وجذوة الحنين إليها. إن في حياة عمتي عائشة وأسرتها مأساة وعيتها منذ طفولتي، ثم شببت وشاطرت أهلي شعور الإعجاب والإكبار للاسلوب الواقعي الذي عالجتها به، هي وزوجها، ومن ثم ولداها. تزوجت وجيهاً فلسطينياً من يافا، سنة ١٩٤٥، فعاشت سعيدة منعمة وولدت ابنها البكر غازي، قبل نزوحها عن فلسطين بعامين. ففي سنة ١٩٤٨ اضطرت هي وزوجها وطفلهما إلى مغادرة يافا فتركوا بيتهم ومزرعتهم، ولجأوا إلى دمشق، وكانت يومئذ حاملاً بمنى. ظنوا أن لجوءهم موقت ريثما تهدأ الاضطرابات، ويحسم النزاع، ولكن الحرب التي نشبت إذ ذاك بين الدول العربية واليهود الصهاينة أدت إلى ما نعرف جميعاً، فأصبحت العمة عائشة مع أسرتها لاجئين حقاً في دمشق، لا

يملكون سوى الحسرة على ما فقدوا، والإيمان باسترداده. إن شجاعتها هي وزوجها، وقدرتهما على العمل والكفاح من أجل تأمين الحياة العزيزة والعلم لولديهما، مما فرض حبهما واحترامهما على جميع الذين عرفوهما. لقد حملا مأساتهما بكبرياء صامت، واتخذا منها حافزاً للعمل، فانصرفت عمتي إلى التطريز وحياكة الصوف التي كانت بارعة بهما، وتولى زوجها الإشراف على عدة مزارع في ضواحي دمشق، كان قد تعاقد على العمل فيها مع أصحابها بوصفه خبيراً زراعياً ممتازاً. الواقعية التي واجها بها محنتهما، والمثابرة على العمل والصبر، كل هذا ساعد في نجاح ولديهما، فغازي قد تخرج من جامعة دمشق مهندساً، وها هو ذا يختص في انكلترا بهندسة المعادن، ومنى قد نالت العلامة الكاملة تقريباً في فحص الليسانس بالأدب الانكليزي من جامعة دمشق أيضاً، فمكنها تفوقها هذا من الحصول على منحة من أمريكا للتخصص بتلك المادة في جامعة بينسيلفانيا. إني أحب منى كثيراً لأننا ربينا معاً، ولأنها كانت صديقتي الأثيرة في دمشق، كما أني أكن لها تقديراً وإعجاباً كبيرين لما تتحلى به من صفات، أهمها الطموح العلمي، والحماسة للقضية العربية بوعي مدهش. افتقدت صحبتها بعدما غادرت سورية، ولكننا كنا نتراسل باستمرار، وعندما وصلت إلى مدينة فيلادلفيا للالتحاق بالجامعة أضحينا نتصل بالهاتف، بين وقت وآخر، وقد حالت المسافة التي تفصل بيننا، والتزاماتنا بالعمل المتواصل، كل واحد منا في جامعته، دون التقائنا حتى اليوم.

هذا عن أهلي، أما أصدقائي الأثيرون في دمشق الذين يكتبون إليّ دون انقطاع فإنهم ثلاثة: سالم الحصاد، ونزار عفيفي، وسمير عدني، ولكل واحد منهم لقب تعارفنا على إطلاقه عليه، في مرحلة الدراسة الجامعية، فسالم هو "الفيلسوف" ونزار هو: "التقدمي" وسمير هو: "الشاعر". أما أنا فقد أطلقوا علي لقب: "الطبيب" منذ كنا نحصل الدراسة الإعدادية وذلك لولعي بتشريح الضفادع والقطط الميتة، ولاهتمامي المبكر بجميع ما يتصل بالطب من قراءات وأحاديث. صداقتنا، نحن الأربعة، كانت تثير حسد الطلاب واستغرابهم، قلت استغرابهم لأننا كنا مختلفين في الطباع والميول والآراء، غير أننا بقينا متضامنين، متحابين بإخلاص لالتقائنا في مبدأ أساسي هام، هو وعينا للقضية العربية، وإيماننا بقدرتنا على خدمتها، والالتزام بتلك الخدمة في الداخل وفي الخارج، كل حسب كفايته وظروفه الحياتية. لقد تعاهدنا على ذلك ونحن بعد فتية لم يتجاوزوا سن السادسة عشرة، مع أن سالماً وسميراً كانا من طلاب معهد اللاييك، ونزاراً وأنا من طلاب مدرسة التجهيز الحكومية، ومع أن كليات الجامعة السورية فرقت بيننا، إذ كان سالم يدرس الحقوق، ونزار التاريخ، وسمير الهندسة وأنا الطب، فقد ظل العهد الذي أقسمنا اليمين على الوفاء به، يوطد أواصر الصداقة بيننا.

إن سالماً أكرمهم بمراسلتي، وأوثقهم اتصالاً بأسرتي لقرابة بعيدة بيننا، وقد امتاز عنا بنظرته الثاقبة، والفلسفية للتاريخ والأحداث، وبتعليقاته

الحاذقة، واللاذعة، على ما كان يجري في العالم العربي، أيام التقائنا في جامعة دمشق. كان يتحدث بحرارة وشيء من السخرية الناجمة عن الألم، لذا كنا نحذره المجاهرة بآرائه خشية أن يشي به أحد، وهو الشاب المخلص في وطنيته، كما كان نزار يقول عنه مدافعاً: إن لمعارضته وتألمه سبباً وجيهاً، هو أن أباه كان سياسياً مرموقاً ولكن "رجعياً" حسب التصنيف الحديث للناس في بلدنا، فقد ناضل من أجل الاستقلال، إبان الانتداب الفرنسي بشجاعة، وانتخب نائباً عن دمشق مرات متعددة، وتسلم مناصب وزارية أكثر من مرة، واشتهر بالاستقامة والصراحة والخلق الرفيع، وهذا ما جعله محترماً حتى من خصومه. وبعد قيام الوحدة بين مصر وسورية في سنة ١٩٥٨ اضطر إلى اعتزال السياسة لأنه لم يكن راضياً عن ارتجالها، وهو من أقدم الدعاة إليها، وأحرصهم على تحقيقها. لقد عارض إعلانها بسرعة، دونما تخطيط، خشية أن تتمخض التجربة المرتجاة عن وليد معتل، محكوم عليه بالموت، لعدم توافر شروط الحياة فيه، وهذا للأسف ما حصل قبل انقضاء العام الرابع على إعلانها. قلت إن أبا سالم اشتهر بالنزاهة والصراحة والشجاعة، وهذا ما دفعه إلى الكتابة إلى كبار المسؤولين، والتنبيه، حرصاً على سلامة الوحدة، فقد نشر رسالة مفتوحة إليهم، بعد انقضاء سنة على قيامها، موجهاً انتباههم إلى الأخطاء الجسيمة التي كانت ترتكب في "الإقليم الشمالي" من الجمهورية العربية المتحدة، أي في سورية طبعاً، فكانت النتيجة أن انهال عليه غضب المسؤولين

لصراحته، ويوجه بحقائق ووقائع كان غرورهم يرفض الاعتراف بها. لهذا كله اتهموه بالرجعية، والتآمر على الوحدة، وبتحريض الرأي العام على حماتها، وسجنوه ستة أشهر بلا سؤال ولا محاكمة، ثم اضطروا إلى إطلاق سراحه لاشتداد المرض عليه، واكتفوا بفرض الإقامة الإجبارية عليه في بيته حيث مات متألماً، غريباً في وطنه، معزولاً عن إخوانه، في سنة ١٩٦٠. وبديهي أن يكون حزن سالم على أبيه كبيراً، وتألمه لما أصابه من ظلم أكبر، فقد أحطناه يومئذ، نحن رفاقه الثلاثة، بكل ما نملك من مشاعر الود ووسائل العناية، ولكننا أخفقنا في تعزيته والتخفيف من حزنه. إن سالماً الولد الوحيد في أسرته، كما أنه كبير الشبه بأبيه خلقاً وخلقاً، فكلاهما مربوع القامة، عميق النظرات، رقيق الطبع، وكلاهما مولع بالمطالعة، وبارع في الحديث. كنا، نحن رفاقه الثلاثة، نجد في صحبته ومجلسه، أي في لقاءاتنا الأسبوعية التي ظلت مستمرة حتى تاريخ سفري إلى الولايات المتحدة، متعة كبيرة. كان جريئاً في النقد، صريحاً في المناقشة، ومنطقياً في تعليل الأمور، ولا سيما مع نزار "التقدمي" الذي كان يعذر مغالاته أحياناً في النقد، لعلمه بأن الدافع إليها هو غيرته على الوطن العربي، والقضية، وسورية، وحرصه على التضامن الحقيقي بين أبنائه كافة، على مختلف نزعاتهم، وبخاصة شباب الجيل الجديد، جيلنا، الذي صُدم، منذ بدأ يفهم ويعي، صدمات متلاحقة بالمنازعات الداخلية والمعارك الخارجية والمهاترات المختلفة. ولا بد لي من

أن أقول أن سالماً يرحب بالخلافات في الآراء السياسية وغيرها، وإنه يؤمن بالحوار الحر البناء، ويردد دائماً في أحاديثه أن علينا، نحن الشباب، أن نتجاوز كل ما يؤدي إلى الانقسام الداخلي أولاً، ثم العربي، بروح عالية، ما دام هدفنا واحداً، وإخلاصنا لبلوغه مسلماً به. كان يحذرنا من جعل الاختلاف في الرأي مفسداً للصداقة، ومؤدياً إلى نشوب عداوات شخصية، كما كان الأمر لدى آبائنا في الماضي، فكنا نُكبر فيه سعة أفق تفكيره، وإخلاصه لمبادئه، وتركيزه على وجوب العمل الدائم، من أجل استرداد ثقة الفرد العربي بنفسه، وبإمكاناته الخلاقة في شتى حقول العمل والبناء.

تمرن سالم في مكتب أستاذ قانون كبير في دمشق ثم فتح مكتباً للمحاماة، غير أن عمله فيه لا يأخذ الكثير من وقته، وهو كثير التردد على لبنان حيث تقيم خالة له متزوجة من رجل أعمال لبناني. يذهب سالم لزيارتها مرة في كل شهر (للترفيه عن النفس ولتهوية الفكر) كما يقول، ولكي يكتب لي رسائل طويلة، مسهبة، تشبه التقارير ولوائح الدعاوى الجزائية... ولا ريب في أن الفضل في اطلاعي على أهم ما كان يجري في بلدي يعود إليه، إلى رسائله الشافية الوافية التي انتظرها دائماً بتشوق كبير. لقد حفظتها في ملف خاص لأنها سجل مهمّ للأحداث، ولما تتضمن من أفكار وسطور جديرة بأن تُحفظ، وبأن تُستعاد قراءتها أحياناً. وقد فاتني أن أذكر أن سالماً يدخل إلى بيتنا وكأنه أخ لي، وأننا، أمي وأخوتي وأنا

متفقون على تقديره، والابتهاج بحديثه، إنه شاب يدمن القراءة، يقضي ساعات طويلة في مكتبة بيته التي جمعها أبوه، والتي غنيت بما اضافه وما زال يضيفه إليها هو من كتب قيمة بالعربية والفرنسية، كما أنه قوي الحافظة، يهضم ما يقرأ، ويجود بخلاصته على أصدقائه، ولكنه قلما يجود عليهم بإعارة الكتب لحرصه عليها، وعلى أن يشتروا ما ينفعهم منها لتأسيس مكتبات في بيوتهم.

هذه قصة صديقي سالم الذي يراسلني بما يشفي الغليل، وأنا على يقين اليوم بأنه سيسر كثيراً من نبأ عودتي إلى الوطن عند وصول رسالتي الأخيرة إليه، فقد أعلمته به، وأعلمت كذلك كلاً من نزار وسمير، قبل أسبوعين.

كليفلاند في ١٩٧٣/٣/٢٢

لم يبق بيني وبين العودة إلى الوطن غير خمسة أسابيع. أعيش أيامي الأخيرة هنا بقلق يجعلني متوتر الأعصاب، على غير عادة. أريد الاستفادة من كل يوم وساعة، أقابل أساتذتي وأصدقائي، وأحضر حفلات التكريم التي بدأت تقام لأمثالي الذين سيغادرون "كليفلاند" نهائياً، ويتملكني شعور غريب لا أجد له تفسيراً بسهولة. لعله مجموعة من المشاعر المختلفة التي تسيطر علي في هذه الآونة الحاسمة، فأنا راض عن النتائج التي أدركتها، والخبرة التي اكتسبتها، والصداقات التي عقدتها، ولكني مع ذلك أحس بما يشبه الحزن، وأشبّه مرحلة السنوات السبع التي قضيتها في هذه البلاد بحلم طويل، صحوت منه فجأة وتأسفت لزواله بسرعة. هذا ما يجعلني مندفعاً للهروب من التفكير، ميالاً للاستغراق بالعمل واللهو، ومع ذلك، كثيراً ما أحاسب نفسي، وأنتقد تصرفاتي عندما ألجأ في الليل إلى سريري، فلا أرضى عن نوازع هذه النفس المحيّرة التي تملّكها الاضطراب منذ اليوم الذي قررت فيه الرجوع إلى الوطن.

أما الليلة فقد عزمت على قضائها مع نفسي، ثم في قراءة فصول طبية، ففي الغد ينتظرني عمل دقيق لأني سأحضر عملية زرع قلب يجريها

أستاذنا الدكتور "جاكسون". إن لهذا الطبيب يداً سحرية، ودماغاً عبقرياً، وقد كانت دروسه العملية، وإرشاداته، والعمل تحت إشرافه أعظم ما حظيت به خلال مدة اختصاصي.

أحس بأن الدكتور جاكسون يعطف علي عطفاً خاصاً منذ أن عرفني وأخذ يراقب دراستي وسلوكي، ربما كان السبب في عطفه علي اهتمامي بمحاضراته، ومؤلفاته، وتجاربه. إن من عادة الأطباء الأجانب الذين يتخصصون في هذه الجامعة أن يسافروا في الصيف إلى بلادهم، أو أن يقوموا برحلات ترفيهية، أما أنا فقد كنت، في السنوات الماضية، من القلائل الذين ظلوا يعملون في المستشفى، ويتابعون الدراسة، وهذا ما سمح لي بمساعدة الدكتور جاكسون في أبحاثه وتجاربه، مع زميل ياباني يدعى: "كيوشي" وهو من أنبل الشباب والأصدقاء. لقد وجدنا في العمل تحت إشراف أستاذنا فوائد جمة، وتشجيعاً مستمراً حدا بنا إلى إجراء عمليات دقيقة، ومعالجة بعض المرضى في جناح الجراحة العامة، وتحمّل مسؤوليات مماثلة، فكنا نعرض عليه التقارير والاقتراحات، ونلقى منه أفضل توجيه ومعاملة.

طبيعة اتصالي بالدكتور جاكسون ولّدت مودة بيننا فدعاني إلى بيته أكثر من مرة حيث تعرفت بزوجته وأولاده ولقيت عندهم الجو العائلي الدافىء الذي افتقدته هنا. وحين زارتني أمي، قبل ثلاث سنوات، علم الدكتور جاكسون بقدومها فأقام لها حفلة عشاء في بيته دعا

إليها بعض الأساتذة، وأصدقائي الثلاثة في كليفلاند: "كيوشي"، زميلي، وخطيبته اليابانية أيضاً "يوري" و"هيللا أندرسون" رئيسة الممرضات في المستشفى وصديقتي الأثيرة، وهي سويدية ذات نصيب وافر من الجمال والذكاء. لقد كرم الدكتور جاكسون أمي أحسن تكريم، ورحبت بها زوجته كثيراً، أما أولاده الصغار فقد أعجبوا بالعباءات الحريرية التي أوصيتها بإحضارها إليهم من دمشق، وتعلموا أن يقولوا بالعربية: "شكراً" و"مرحباً". ولن أنسى، ما حييت، هذا الرجل الذي خفف عني وطأة لؤم الدكتور "فيشر" ووقاحته إبان حرب حزيران. شتان بين موقف الأستاذين من قضيتنا، في أثر تلك النكبة وفي أثناء حدوثها. الدكتور جاكسون واجهها بتفهم للواقع، وتعليق متزن رائده الإنصاف والتجرد، بينما سيطر الحقد، والسكر بنصر مزيّف على تصرفات الدكتور فيشر وأحاديثه. لا! لا شيء قادر على أن ينسيني تهكمه الموجع لحظة قال لي، في صبيحة اليوم السادس الذي تلا الاعتداء الصهيوني على بلادي، إذ كنا نهمّ بالخروج من قاعة المحاضرات:

ـ أراك ثابت القلب يا دكتور "دارمي"، لعلك لم تسمع الأنباء عن هزيمة بلادك.... إن قنابل إسرائيل تقصف سورية والأردن اليوم، بعد أن أطاحت بالطيران المصري بسهولة عجيبة!

وابتسم ابتسامة صفراء تنزّ حقداً واستهزاءً، فغلى الدم في عروقي، وقلت له، بل صرخت في وجهه قائلاً:

ـ اسكت! اسكت! السكوت أفضل من التبجّح بانتصارات الغدر التي ما زالت عواقبها مبهمة!

وانقسم الزملاء، الذين كانوا بالقرب مني وسمعوا، إلى فئتين: فئة أخذت تلوم الدكتور فيشر على تعرضه لموضوع الحرب القائمة، واستفزازه لي، وفئة كانت تؤيده، إذ لّمحت بما يؤذي ويشير، فعرفت الصديق من العدو، وتوجهت للتوّ إلى مكتب عميد الجامعة حيث طلبت مقابلة مستعجلة. أصغى العميد إلى شكواي باهتمام ثم أعرب لي عن تأسفه لما حدث، ووعدني بإبداء ملحوظة للدكتور فيشر، ونصحني في آخر حديثه المقتضب بالتغيّب عن محاضرات فيشر ريثما تهدأ أعصابي، على حد تعبيره... كان جلياً، مما سمعت، أن العميد أيضاً من رأي فيشر وجماعته، فقد وعد بالتحدث إليه، لا بتأنيبه، ولكنه ظل مهذباً على الأقل، فخرجت من مكتبه أتميّز غيظاً، ينهشني الألم لما حل بنا، والإشفاق على جهل هذا العالم البعيد لنا ولعدالة قضيتنا. سرت مقدار ساعة في الطرقات على غير هدى وأنا أفكر بالفارق البعيد بين الدكتور جاكسون والدكتور فيشر، مع ذلك استولى عليّ التشاؤم لأني أدركت ما سيلحق أمتي وزملائي الطلاب المقيمين في مختلف بلاد الغرب من إهانات، فالويل، كل الويل للمهزوم والضعيف لأن الحق في جانب الأقوياء، أو ليست هذه شريعة الغاب؟

تحققت نبوءتي بعد نكبة ٦٧ لأنني تعرضت في الولايات المتحدة، أنا وسائر زملائي العرب المقيمين في ولاياتها، لمشاحنات مؤذية،

وإهانات متنوعة، حتى أنه كثيراً ما كان يخيل إلينا أننا نقيم في إسرائيل، لا في أميركا. لقد اكتسح الصهاينة ميادين العمل والإعلام في هذه البلاد، منذ عشرات السنين، ووجدوا فيها تربة خصبة لبثّ سمومهم وأضاليلهم عند الشعب الأميركي الذي يتصف بالسذاجة، ويصدق ما يسمع بسهولة، على الأغلب. أما نحن فقد كنا وما زلنا، بحكوماتنا وسفاراتنا ومكاتب الجامعة العربية، مقصّرين في شنّ الحملات الإعلامية المنظمة المجدية، أي التي تنبثق عن تخطيط محكم، وتتطلب العلم والمال والرجال. لهذا تألفت لجان طلابية، بعد النكبة، في جميع الولايات الأميركية التي يوجد فيها طلاب عرب، وشرعت بالعمل الحثيث من أجل الدعاية لقضية فلسطين، وأستطيع أن أقول، من دون تبجح، إننا وحّدنا جهودنا، ووفقنا لتنوير الذين أتيح لنا الاتصال بهم. لقد اعتبر شبابنا وشاباتنا أنفسهم مسؤولين عن دحض الأكاذيب الصهيونية، ومكلفين بالعمل لبيان الحقيقة، كل واحد منهم وواحدة، حسب إمكاناته، أينما وجدوا. فإذا حسب بعض الناس أننا كنا بعيدين عن المعركة، وعن ملابسات حالة "لا سلم ولا حرب" منذ حزيران ٦٧ فإنهم مخطئون، وقد لا أتجاوز الحقيقة عندما أقول إن الشباب العربي المغترب قاسى منها ومن نتائجها مثل ما قاساه المقيمون في الوطن العربي، وأشدّ أحياناً. لقد طُعنّا في الصميم، وفُرض علينا أن نواجه تيارات معادية كان بعضها يجهل القضية، وحتى موقع بلادنا الجغرافي، وينعتنا

بالهمجية والإرهاب. هذا ما دعانا إلى التكتل، ومضاعفة الجهود لإلقاء الضوء على الحقيقة، وإلى الإيمان بأن الهزيمة ليست عاراً، فكم وكم من أمة عظيمة خسرت معارك كبيرة ثم استرجعت قوتها وخاضت حروباً مظفرة، فالعار، كل العار، يكمن في التخاذل والاستسلام.

كتب لي أهلي ورفاقي رسائل متعددة بعد النكبة، عباراتها أنين وشكوى، وأنباؤها محزنة حقاً، فالغريب الذي لا أفهمه هو أن تلك النكبة المروعة لم توقظ العالم العربي كما ينبغي بعد. ما زال كثيرون من أبنائه وزعمائه مخدرين، غائصين في الأحلام والأوهام، مع أن ما حدث حريّ بتحريك الجماد. أما نحن الطلاب، الموجودين خارج البلاد العربية فقد عانينا من النكبة ورواسبها الشيء الكثير، وأرى أنها خدمتنا إذ خلقت منا جيلاً من الشبان والشابات مؤمناً بحقه وبعدالة مطالبه، يزداد تصلباً وإيماناً بهما، بل جيلاً ثائراً على الظلم والتخلف، مدركاً أن الأسلحة التي ينبغي أن نحارب بها أعداءنا هي الأسلحة ذاتها التي يستعملونها: العلم، التضامن، التقنية، التخطيط، وعزائم الرجال والنساء معاً. قد يوجد من يقول أننا، نحن الطلاب، في غنى عن القلق وعن معاناة القضايا القومية والمصيرية، ونحن نقضي أعواماً من شبابنا في الجامعات للتزود بالعلم، فأجيبه بأن للقلق والمعاناة وجهين: الوجه السلبي الذي يثبط العزائم، عزائم الضعفاء، ويدفعهم إلى التخاذل واللامبالاة، والوجه الإيجابي الذي يُذكي الحميّة،

ويحفز الهمم إلى المستحيل من أجل الانتصار على التخاذل، وتحقيق الذات، ومن ثم النصر. فمن أجل بلوغ هذا الهدف أنا عائد إلى بلادي، وراض بما تفرضه علي من تضحيات، وسوف يعود كثيرون إذ مهما طالت مدة إقامتنا في بلاد الغرب، حتى ولو تزوجنا وأنجبنا الأولاد، وحصلنا على الجنسيات، فإننا نبقى غرباء متطفلين على عالم لا نمتّ إليه، ولا يمتّ إلينا، إلا بصفة الإنسانية.

كفاني الليلة كتابةً وتفكيراً، لقد آن لي أن أخلد إلى النوم لكي أصحو باكراً، ولأقرأ، بصفاء فكر، الفصول التي ينبغي أن أطلع عليها قبل موعد عملية زرع القلب.

كليفلاند في ٢٣ / ٣ / ١٩٧٣

استغرقت العملية التي أجراها الدكتور جاكسون هذا الصباح ست ساعات، علمت بذلك، بعد انتهائها، من صديقتي "هيللا" رئيسة الممرضات. إنني أنسى كل شيء عندما أستغرق في العمل: الوقت والتعب والجوع، وحتى نفسي، وعملية اليوم كانت رائعة ومثيرة، كما أن الأمل بنجاحها كبير، حسب قول أستاذنا الدكتور جاكسون، لسيرها الحسن، وبُنية المريض ومعنوياته الجيدة، وسوف يبقى المريض تحت الخطر، مع ذلك، مدة طويلة، لا يمكن تحديدها الآن.

تناولنا طعام الغداء في مطعم المستشفى مع أستاذنا، في وقت متأخر، ثم تفرقنا كل واحد إلى الجناح المسؤول عنه. ولما بلغت الساعة السابعة مساء رجعت إلى بيتي الذي يقع في ضاحية جميلة، على بعد خمسة أميال من المصح. تكاد بيوت هذه الضاحية الوادعة لا تُرى من الشارع إذ تعانقها أشجار باسقة، ونباتات نضرة، تلتصق بالأسوار والجدران. لقد أُعفيت من المناوبة الليلية في المستشفى مؤخراً لانتهاء المدة المقررة في نظام الجامعة، وأصبحت حراً بالتصرف في وقتي ليلاً، أسهر مع الأصدقاء، وأدعو إلى بيتي من أشاء، أو أنفرد بنفسي وأكتب. وأنا الليلة على موعد مع صديقتي "هيللا" هنا في منزلي، لذا اهتممت بإعداد المائدة لعشائنا، في

زاوية الغرفة الرئيسية التي تتسع للطعام والكتابة والجلوس. وضعت الشمعدان الفضي، الذي أهدته إلي هيللا يوم عيد ميلادي، في وسط المائدة، ووضعت إلى جانبه وردتين، في إناء صغير، وكنت قد اشتريتهما قبل الرجوع إلى البيت، لأن الورد هو أحب أنواع الزهور إليها. كما أنني صففت الصحون والكؤوس، وهيأت الشريط المفضل لدينا الذي يحتوي مجموعة من الموسيقى المسجلة الخفيفة. نظرت إلى ساعتي: السابعة والنصف تماماً، إذن لدي متسع من الوقت لكي أستحم قبل وصولها مع الطعام الذي شاءت إعداده بنفسها على الطريقة السويدية.

الغريب حقاً أن هيللا أضحت لا تحب أن نتناول الطعام، عندما نلتقي، في خارج البيت، لقد طرأ عليها تغيير كبير في الآونة الأخيرة جعلها تؤثر البيت والسهر في جوٍّ هادىء، في حين كانت، لأشهر خلت، مولعة بارتياد المطاعم والملاهي الصاخبة. إن نشاط هذه المرأة، واهتمامها بعملها وأصدقائها ونفسها شيء خارق، فهي لا تضيع ساعة: تعمل بتفان في المستشفى، وتطهو في بيتها أحياناً، وتمارس الرياضة، وتعزف على البيانو، وتقرأ كثيراً، وتُشيع البهجة حيثما وُجدت. ولا أنكر أني مدين لها بسعادتي الحاضرة وبما اكتسبت من صحبتها، فهل أستطيع احتمال البعد عنها؟ إن هيللا لا تشبه اللواتي عاشرتهن قبلها بشيء أبداً لأنها رائعة في كل شيء: في طباعها وذكائها، في روحها وجسمها. جمالها هادىء يدعوني إلى التفاؤل والراحة، قامتها ممشوقة، وشعرها الذهبي مسترسل

لماع، وقد اعتادت أن تضمه في جُمة أنيقة تخفيها تحت قبعتها البيضاء أثناء العمل، ولكنها تطلق سراحه في الليل ليداعب عنقها وكتفيها ويغريني بالعبادة! إنها رائعة في صدقها وصراحتها، تنظر إلى الحياة والناس، كسائر بنات بلدها الاسكندنافي الراقي، نظرة مختلفة عن نظرتنا، تبدو لنا غريبة في أول وهلة، ولكنها موضوعية، وعملية لمن يفهمها.

تعلمت من هيللا أن أتحرر من عقدي الوراثية، وأن أتصرف معها تصرفاً طبيعياً رائده الإخلاص في الشعور، والصدق، واحترام الشابة المتحررة فيها. علمتني كل هذا، ولم تكن ثمة حاجة لكي تعلمني أن أحبها، وكيف أحبها، لقد أحببتها حباً جماً ملك علي عواطفي وعقلي منذ خمس سنوات، ملكها تدريجاً، دون أن تشعر هي بشيء في سنة تعارفنا الأولى. كانت تتدرب على التمريض في مستشفى كليفلاند بعد تخرجها من الكلية فلقيتها، المرة تلو المرة، في قاعة العمليات، وغرفة الإسعاف، وفي المطعم، فكانت ترد علي تحيتي بمثلها، وتنصرف إلى مصاحبة الطلاب السويديين وبعض الأميركيين، ولا أخفي أنها كانت تثير اهتمامي لما انفردت به من رشاقة وجاذبية. ثم كانت الحفلة التي أقمناها لتوديع الدكتور "هانس" مدير المستشفى السابق، واشتركنا، أطباء وممرضات وطلاباً بإحيائها فقدمنا، كل واحد حسب موهبته، جزءاً من البرنامج مما جعله حافلاً بالمتنوعات. كان علي أن ألقي كلمة شكر للدكتور هانس بإسم الأطباء الأجانب، واذكر أن هيللا قدّمت عزفاً على البيانو،

كلاسيكياً وفولكلورياً من بلادها قوبل بالتصفيق الحاد، فاضطرت إلى العزف مجدداً ، وقدمت أنشودة سويدية غنتها بعض الطالبات السويديات في كلية التمريض. هنأتها على عزفها في حديث أجريته معها ليلة الحفلة، وأعربت عن مفاجأتي باكتشاف تلك الموهبة عندها، ثم تجرأت، أنا الشاب الذي اشتهر بقلة الكلام وشدة الخجل مع الفتيات، وبُحت لها بأن يديها الجميلتين استرعتا انتباهي منذ أن شاهدتها لأول مرة. تقبلت هيللا حديثي بسرور، وهنأتني على الكلمة التي ألقيتها قائلة:

ـ لقد عبرت عن مشاعر جميع زملائك بخطاب قصير وبليغ، وأنا أهنئك على إتقان اللغة الانكليزية يا دكتور دارمي، وكأنها لغتك الأصلية.

وكان هذا مما شجعني على دعوتها إلى تناول طعام الغداء في اليوم التالي، يوم الأحد. وهنالك: في المطعم الريفي الذي اخترته للقائنا كانت تنتظرني مفاجأة ثانية قطعت سلك أحلامي إذ علمت أنها راجعة إلى ستوكهولم بعد أسبوع لتعمل في التمريض، ولتعيش مستقلة عن أهلها.

كنت أفكر بهيللا، وأستعرض ذكرى تعرفي عليها عندما كنت أستحم وأرتدي ثيابي استعداداً لاستقبالها، فقطع قرع الباب سيل الذكريات، وأسرعت لأفتحه بارتباك شديد، يتكرر في كل لقاء، ويثير ضحكاتها واستغرابها. غير أن الطارق لم يكن هيللا، بل كان غلاماً يحمل كعكة الحلوى التي أوصيت عليها. نظرت إلى ساعتي فعرفت أن شوقي إليها هو ما جعلني أظن أن وقت قدومها قد حان، فما زال بيني وبينها ربع

ساعة. وضعت الحلوى في الثلاجة وجلست أنتظر إطلالتها، بل دفقة الحياة والنور التي تحتلّ البيت لحظة دخولها إليه. حقاً إن الانتظار طويل. هيللا! هيللا! كيف أستطيع أن أسلوك، وأن أعيش بعيداً عنك؟ وسرحت خواطري من جديد فتذكرت كيف ودعتها يوم سفرها، كما تذكرت عباراتها الودية التي ودعتني بها، وتمنياتها بأن أنجح نجاحاً كبيراً، وأن تنتصر بلادي في معركتها القادمة مع إسرائيل لأن هيللا تكره اليهود لخداعهم وماديتهم وعنجهيتهم. إنها تشعر بشعور العرب، وتعطف على اللاجئين، وتتألم لما لحق بهم من ظلم وشقاء بدافع إنسانيتها ونزوعها للعدالة، ولا ريب في أن ما سمعت منها يوم سفرها وقبله زادني إعجاباً بها، وحرصاً على مراسلتها.

تلقيت من صديقتي، في غضون العامين اللذين قضتهما في السويد، بضع رسائل وبطاقات بريدية، وبعثت لها بمثلها بمناسبة الأعياد، وزواجها، وولادتها... لقد تزوجت، بعد عودتها بأشهر قليلة شاباً غنياً تعرفت إليه في المستشفى، حيث كانت تعمل، إذ أقام فيه شهراً لمعالجة كسور في ساقه أصيب بها وهو يتزلج، فتحابا ومن ثم تزوجا. كان الإثنان يومئذ في الثانية والعشرين من العمر، ثم أعلمتني أنهما رزقا طفلاً فهنأتها وانقطعت رسائلها عني بعد ذلك. قلت لنفسي: هذه صفحة ممتعة انطوت من كتاب، شُغلت بعدها عن هيللا بعملي وبصداقات طيبة نعمت بها، غير أن أفكاري كانت تشرد، بين حين وآخر، في حالتيّ الوعي واللاوعي

لتقوم برحلات صاروخية إلى ستوكهولم. لا أنكر هذا، كما لا أنكر أني كثيراً ما كنت أستغرب حنيني إلى هيللا يقيناً مني بأن الحياة فرقت بيننا إلى الأبد، فأنا شاب عربي مقيم في الولايات المتحدة موقتاً، ومصمم على الرجوع إلى سورية بعد انتهاء تخصصي، وهي امرأة سويدية من أقصى شمال أوروبا، سعيدة في بلدها، وفي عملها وزواجها، لذا كنت أحكّم العقل والمنطق، وألوم نفسي على ضعفها، والتعلق بحبال الهواء. ولكن ما حدث بعد ذلك أكد لي أن ما ظننته فراقاً أبدياً كان مجرد تقدير منطقي للأحداث، وأن الأقدار لا تعترف بالمنطق حين تقرر أن تجمع المخلوقات أو أن تفرق بينها. ولا أحسب أن أحداً في العالم فرح بظنه الخاطىء مثل فرحي يوم تلقيت رسالة من هيللا، في مطلع صيف عام ١٩٧٠، أي قبل ثلاث سنوات تقريباً، قالت لي فيها:

(عزيزي عصام،

سأعود إلى كليفلاند بعد عشرة أيام إذ تعاقدت مع مدير المستشفى، مستشفانا، على العمل فيه رئيسة للممرضات، وذلك لمدة عامين قابلين للتجديد. سأرجع إذن إلى المدينة الجميلة لكي أنسى كارثة زواجي الذي انتهى بالطلاق، قبل ثلاثة أسابيع. ابني الصغير "شارلز" سيبقى برعاية جدتي التي تقيم في الجنوب، في مدينة "مالمو" فهي متقاعدة، تحب الأطفال، وتعيش في دارتها وحيدة مع خالة لي مقعدة، تعتني بها ممرضة ممتازة، تهيم بالأطفال أيضاً.

سأخبرك بما حدث لي بعد وصولي، ولا أجد داعياً لوصف سعادتي بلقائك والتعاون معك في المستشفى، فإلى اللقاء.

هيللا)

فأبرقت لها يومئذ في الحال خشية ألا يصلها جوابي في البريد لضيق الوقت، وقلت (سعادتي أكبر بعودتك. عصام).

وأذكر أن هيللا رجعت إلى كليفلاند متعبة صحياً ونفسياً وكأنها غابت عشرة أعوام لا عامين فقط، ولكنها استعادت صحتها ونشاطها ونضارتها في خلال شهر واحد لما لاقت هنا من مودة وترحيب، ولِما لتبديل الإطار في حياة كل إنسان من تأثير طيب في تجديد نشاطه، ورفع معنوياته، ولا سيما بعد الصدمات.

ومنذ أن وقفت على تفاصيل مأساتها كفرت بما نسميه: "زواج حب"، فقد ثبت لي أن العاطفة الجارفة وحدها لا تبني بيتاً سعيداً إذا لم يرافقها التوافق بين تربية الزوجين وطباعهما. أعلمتني هيللا أن زوجها "هارولد" كان يتعاطى المخدرات قبل أن يلتقي بها، وأنه أخفى عنها هذا الأمر قبل الزواج، فما أن ضمهما البيت الواحد حتى عاد إلى المخدرات التي استبدت به، كما أصبحت مستبدة بزهرة شباب العالم في عصرنا. كتب صحفي إيطالي عن إقبال المراهقين في أوروبا على أنواع المخدرات مقالاً قرأته منقولاً إلى الانكليزية قال فيه: (ترى هل نقوم بواجبنا الإنساني، هنا وفي كل مكان، لإيقاف هذا التيار الذي يهدد الحضارة؟).

أعود إلى حبيبتي هيللا التي تفاقم الخلاف بينها وبين زوجها بعد أن اكتشفت مرضه، ويبدو أنه عرض عليها أن تصحبه إلى أماكن تسليته، وحاول إقناعها بمجاراته، فرفضت بحزم، ثم انفصلت عنه واحتفظت بالطفل. لقد كتبت إلي تقول آنذاك: (ظننت أن وجود طفلنا قادر على إنقاذ عشنا الصغير من التفكك ولكن ظني خاب، يا عصام، لأن هارولد كان متعلقاً بأوكار التهلكة أكثر من تعلقه بي وبابنه. إني أشفق عليه كثيراً، وأتألم لحاله، ولا سيما عندما أذكر نوبات البكاء والندم التي تنتابه، ورغبته في الشفاء من الإدمان، في حالات الوعي، غير أنها رغبة عقيمة لا تساندها الإرادة).

ومنذ أن رجعت هيللا إلى كليفلاند أصبح يشدنا، الواحد إلى الآخر، حب كبير، وتفاهم في أمور كثيرة كالولوع بالمطالعة، والموسيقى، والرياضة في أوقات الفراغ من العمل. لولاها لما أتقنت ممارسة التجديف، و"التنس"، ولما وجدت الراحة النفسية التي ساعدتني على النجاح. لعل موقفها من عودتي إلى الوطن يبدو مستهجناً ومستغرباً لأنها شجعتني على العودة، على الرغم من حبنا الكبير، وحرصنا على استمرار اللقاءات، ولكن تشجيعها هذا لم يكن إلا لكي أحقق طموحي في خدمة بلدي، وفي إرضاء ضميري. إن هيللا تختلف عن سائر النساء، كما قلت، بواقعيتها المذهلة أحياناً، وتفكيرها المستقل، الناضج، فقد قالت لي، أكثر من مرة، بأنها لا ترغب في الزواج مجدداً، وأنها تفكر في إحضار ابنها إلى الولايات

المتحدة في العام المقبل لأنها جـددت العقـد مـع المستشـفى، وغـدت تحب الحياة في كليفلاند لما تلاقيه فيها من نجاح في العمـل، وراحـة بـال. دعتنـي أكثر مـن مـرة لمرافقتهـا إلى السـويد حيـث تقضـي إجازاتهـا بـالقرب مـن صغيرها ولكن ظروفي لم تكن تسمح لي بالغياب عن كليفلاند، حتى إبان الإجازات، في السنوات الأخيرة. ومن يدري؟ ربما نعود فنلتقـي يومـاً، إمـا في بلدها، وإمـا في سـورية، فقـد دعتهـا أمـي بـإصرار لزيارتنـا فيهـا عندمـا تعرفت إليها لـدى زيارتهـا إليّ التـي تحدثـت عنهـا. وعلـى الرغـم مـن أن التفـاهم بينهمـا في الحديـث كـان عسيراً، فقـد تفاهمتـا في أمـور كثـيرة، وتعلمت صديقتي من أمي صنع بعض الأطباق العربيـة كـإعداد الـرز علـى طريقتنا، واللحم بالعجين، ومتبَّل الباذنجان الخ... ومـا زالـت أمـي تسـألني عنها في رسائلها لشدة إعجابها بها.

لقد شكرت هذا المسـاء ذاكرتـي النشـيطة لأنهـا سـاعدتني علـى احتمال الانتظار. ولما سمعت وقع أقدامها أسرعت إلى الباب وفتحتـه قبـل أن تضع أصبعها علـى الجرس، وضممتهـا إلى صـدري بفرحـة غـامرة، في حين فاح عطرها الناعم ليزيد من نشوتي.

لا أخفي أن فراقها ينغّصني، وأني أضحيـت أفتقدهـا وهـي قريبـة مني، غير أني أدرب نفسي على التجلد أمامها، وعلى تقبل الواقع الـذي لا مفر منه بموضوعية، وأعزي نفسـي قـائلاً أن كـل جميـل في الوجـود قصير العمر: الربيع، والشباب، والسعادة، والمهم أن نقدّره في حينه، وأن ننعم به!

عندئذ أستعيد القدرة على أن أعيش اليوم الحاضر بسرور، وعلى طرد كل ما يدعو إلى الاكتئاب، مردداً في سري أننا سعداء، وأن ليلتنا هذه جميلة، وأن لقاءنا المقبل ـ يكون أجمل. لن يكون لقاؤنا المقبل غداً السبت، لأنّ هيللا مرتبطة على العشاء عند أصدقاء لها أميركيين، ولكني سأقضي يوم الأحد كله معها ومع زميلي "كيوشي" وخطيبته اليابانية الجميلة "يوري" في ضاحية من ضواحي كليفلاند، كما أننا سنعود إلى المدينة لنشاهد فيلماً سينمائياً نال شهرة واسعة في الولايات المتحدة منذ عامين، عنوانه "قصة حب".

كليفلاند في ١٩٧٣/٣/٢٤

كرّست هذا النهار لكتابة تقرير عن عملية الأمس طلبه مني الدكتور جاكسون، وكنت قد زرت المريض في المستشفى صباحاً ووجدته في حالة حسنة تدعو إلى التفاؤل. إن وثبة العلم في هذا العصر شيء خارق، لا في الجراحة فحسب، بل في ميادين أخرى حققت للإنسانية من التقدم والتطور في نصف قرن ما لم تحققه في قرون. تُرى هل صحيح أن قلب المرأة أقوى من قلب الرجل، كما يقول بعض العلماء؟ وهل ستتاح لي فرصة إجراء عملية مماثلة في بلدي؟ فرغت من إعداد التقرير المطلوب في السابعة مساء، ولم أسمح لنفسي بأن أقرأ الرسالة التي تلقيتها اليوم من سالم قبل الفراغ منه، ليقيني بأنها ستشغلني عنه، وبأنها ستكون أفضل رفيق لي في وحدتي هذه الليلة. أعددت عشائي الخفيف، وتناولته بسرعة، وانتقيت الموسيقى التي نويت أن أدوّن مذكراتي على أنغامها، ثم فضضت الرسالة وقرأت فيها ما يلي:

عزيزي عصام،

رسالتي هذه تتمة للتي وصلتك في الأسبوع الماضي، أرأيت كيف لا أتأخر عن الوفاء بالوعود؟ لقد زرنا البارحة، نزار وأنا، صديقنا الشاعر سمير في بيته الجديد وذكرناك كثيراً، أتدري أين قضى مع ناديا عروسه

رحلة "العسل"؟ لقد أعلما الأهل والأصدقاء بأنهما مسافران إلى اللاذقية لمدة أسبوع، بعد الزفاف مباشرة، ولكنهما قبعا في دارتهما الصغيرة الأنيقة في "القصاع" بدمشق، واستعاضا في هذه الخلوة عن دفء الساحل، وجمال البحر، وهمسات الأمواج بدفء الحب، وجمال الانسجام، وهمسات الشفاه. سوف أحدثك عنهما حديثاً ساراً في مرة أخرى، أما اليوم فأحب أن أنقل لك شكرهما على بطاقة التهنئة التي أرسلتها إليهما بمناسبة زفافهما، وأن أعلمك بقلقي على شاعرية سمير... أخشى كثيراً أن يقضي الزواج عليها لأن الشعر يحب الحرية، ولا يعيش بين القضبان ولو كانت ذهبية، فمنذ أن دخل سمير القفص الذهبي طوعاً فقد حرية التصرف بوقته، وانفرط العقد الذي كان يجمعنا به، نزار وأنا، مرة في الأسبوع في مقهى البرازيل للتعليق على الأحداث، وإعلامك بها. لقد وجدته يوم أمس محصور الفكر والاهتمام بزوجه وبيته، مشغولاً بهما عن كل ما عداهما، كأن الوجود كله تجمع في ركنه الجديد هذا، فأين سمير الأمس المهتم بقضايا العالم، المتحمس لما يجري هنا وهناك، من سمير اليوم المغلق، المنغمس في الأنانية والسطحيات؟ أتذكر حماسته الرائعة وأرقه الشديد يوم انطلقت سفينة أبولو "١١" إلى الفضاء في ١٦ تموز ١٩٦٩؟ لقد كتب إليك رسالة قرأها علينا قبل أن يودعها البريد ووصف لك فرحته العارمة بهذا الحادث المذهل، وكان حقاً منجذباً إلى الاخبار يتتبعها ليل نهار، كما أنه دعانا إلى عشاء فاخر، نزار وأنا، ابتهاجاً بنجاح تلك الرحلة التاريخية،

وبهبوط الإنسان على سطح القمر (الذي تم في الساعة الثالثة والدقيقة ٥٦ من يوم الواحد والعشرين من شهر تموز، فقد حفظنا التاريخ لشدة ما كرره علينا...) وشرب نخب الرائد "ميل أرمسترونغ"، ونخب رجله اليسرى التي وطأت أرض القمر، قبل اليمنى، بعد نزوله من السلم! قل لي يا عصام، هل الزواج من دواعي تخلف الإنسان؟ أو أن الحب نفسه يردي في السخف؟ أقول هذا لأعرب عن حيرتي، وأستعين برأيك، لأننا، في أثناء زيارتنا له، أتينا على ذكر التقدم الذي أحرزته كل من الولايات المتحدة وروسيا في سبر أغوار الفضاء، وعلقنا على أهمية التعاون المرتقب بين الدولتين، فابتسم سمير وقال: "لا أوافق على تكريس مزيد من الجهود والأموال لاكتشاف الكواكب! وبعد أن رأينا صور الكرة الأرضية الرائعة الجمال التي التقطتها (أبولو ١١) من القمر بتّ أوافق الروائية الصينية هان سوين "HAN SUYIN" على ما قالت في روايتها "المفاتن المتعددة" إذ قالت: (ما أغبى الإنسان الذي يتعلق بالسماء وهو ناس أن الأرض التي يعيش عليها من أجمل الكواكب). نعم يا عزيزي هذا آخر ما توصل إليه صديقنا الشاعر، الذي طوى الحديث، ودعانا للنزول إلى الأرض، بل للهبوط إلى سطح الأرض للتحدث في إمكانية شراء الأثاث بالتقسيط، وضرورة تموين البيت، مرة في كل أسبوع، من سوق الهال، ومساعدة الزوجة في غسل الصحون...

ولنعد الآن إلى الحديث عن دمشق، التي ينبغي أن أكمل وصفها لك، فإن في نفسي رغبة ملحة في الكتابة والبوح، وليس من يفهمني

غيرك. سأبدأ بوصف ما أضحت عليه حال شارعيها الرئيسيين وهما: شارع "أبو رمانة" وشارع "المالكي" واجهتا العاصمة. تذكر يا عصام أنهما عريضان، يفصل بين وجهتيّ السير فيهما حاجز مغروس بالعشب الأخضر وأحواض الزهر في "المالكي" وببعض أشجار النخيل والأزهار في "أبو رمانة"، وتذكر أن الحاجزين كانا مسوّرين في غابر الزمان، أما اليوم فقد أصبحا مفتوحين لعامة الناس: المشاة، والمتنزهين، الكبار والصغار تطبيقاً لشعار الحرية، فمن شاء أن يجلس على العشب أو يأكل أو ينام فهو حر يستمتع بحق عام. النتيجة: طبقنا الحرية في غير محلها، والعشب الأخضر لم يعد ينبت، وإن نبت فهو معتل، أصفر اللون، ولم يعد للأزهار مكان، كما لم تعد للمدينة هيبة ولا نضارة. نحن يا صديقي لا نميز بين حق الدولة علينا وحقنا عليها، بين واجباتها وواجباتنا، فكل شيء في ميزاننا المختل قد اختلط والتبس، ولكن لا بد من أن يصطلح الميزان في يوم من الأيام. ويبدو لي أن أطفالنا يجدون لذة كبرى في قصف أغصان الشجر المزهر والعقيم والمثمر على حد سواء، وفي قطع الأزهار أينما وجدوها، لا حباً بها، ولكن حباً بالأذى، فهل تظن أنهم مسؤولون ومخطئون؟ ربما كانوا مخطئين، ولكن المسؤولين عن تصرفاتهم الشاذة، وعن نزوعهم إلى التخريب هم نحن يا عصام، فلا البيت يُحسن تربيتهم وتوجيههم، ولا المدرسة ولا المجتمع. ويكفي في اعتقادي أن نفعل ما فعل رجل ذكي في إحدى قرى الاصطياف في لبنان الشمالي، في مصيف "سير الضنية" إذ وضع إلى جوانب أحواض

الورود الجميلة، في حديقة الفندق الكبير، لوحات كتب عليها العبارة التالية: "إن قطفتها فهي لك، وإن تركتها فهي للجميع". فتعلّم الأطفال والناس أن تلك الحديقة من مفاخر بلدتهم، وكفّوا أذاهم عن وردها.

قلت لك في رسالتي السابقة أن دمشق اتسعت بسكانها أكثر مما اتسعت بعمرانها، فاتني أن أقول أن أكثر ما بنيناه في السنوات الماضية هو: المساجد والكنائس، وكأننا في حلبة مباراة. شيدنا المساجد بالعشرات، وأطلقنا مكبرات الصوت فيها لتنقل أصوات المذكرين والمؤذنين، الجميلة والقبيحة، في الليل وفي النهار، بين البيوت والمستشفيات الصغيرة النابتة بالقرب منها في سائر الأحياء، واعتقد أن مكبرات الصوت هذه، لو وُجدت في زمن الرسول (صلعم)، لما سمح بها لأن للأذان شروطه وتقاليده، ولأن الغاية منه ليست إقلاق راحة الناس، وبصورة خاصة المرضى والتلاميذ والأطفال. سقى اللّه يا صديقي أيام كنّا نترنّم بصوت المؤذن الجميل وقت الفجر، ونصحو على صداه منشرحي القلب والصدر! لقد نسي المؤمنون في بلدنا أن يبنوا مستشفى واحداً كبيراً، أو مصحاً صغيراً أو مستوصفاً أو مدرسة بالقرب من كل مسجد وكنيسة، وقد فاتهم أن بلدنا محتاج إلى بيوت العافية والعلم أكثر من احتياجه إلى بيوت العبادة، الموفورة فيه، حمداً للّه ، وماذا أقول بعد؟ لقد ابتلينا بنوبة إيمان هيستيرية ظهرت هكذا فجأة لأسباب نعرفها، وأسباب لا نعرفها، وأنا رجل مؤمن كما تعلم ، غير أني لا أحب الطفرات، وأخشى من عواقبها،

وأرى بوضوح أن أزمة الأخلاق التي نعانيها لا تُحلّ بالإكثار من بيوت العبادة لاستقطاب المصلين بقدر ما تحل بإصلاح قلوب المصلين ونفوسهم وعقولهم، وغير المصلين. إن هذه الأزمة هي الأصل فيما آلت إليه الأمور في بلدنا المسكين، واذكر الآن أني بحت لك بما يساورني من قلق ناجم عن هذه الطفرة يوم أعلمتك بانتساب أختك هدى إلى جمعية المسلمات الجديدة التي ما زالت آخذة بالانتشار وباجتذاب العديد من فتياتنا ونسائنا، فاتخذن الثياب القاتمة الطويلة الفضفاضة زياً لهن، وكأنهن راهبات يخطرن في الشوارع، مع أن "لا رهبانية في الإسلام".

لكم نحن متناقضون يا صديقي، نقول إننا على شفا الهاوية، ونرنو إلى مستقبل أفضل ولكننا نرفض الاعتراف بأن المستقبل الذي نتطلع إليه يتوقف على سلوكنا في الحاضر، وعلى معالجة مشكلاتنا بموضوعية، لا بالغيبيات، وبمنطق جديد، وفكر ثاقب وجرأة. ولن يتم لنا ما نريد إلا إذا اعترفنا بأخطائنا، وواجهناها بشجاعة، وقوّمنا أنفسنا، وتبصّرنا بواقعنا وموقعنا من العالم لكي نستأصل الأدواء ونهتدي إلى العلاج. عندئذ نبدأ باستثمار إمكاناتنا، ونتفهم جوهر ديننا وتراثنا، ونعرف كيف نحافظ عليهما للنفاذ إلى مستقبل افضل نبنيه بسواعد قوية تحركها عقول مستنيرة. إننا نعيش اليوم في غربة عن العصر الحاضر المتفجر علماً وتطوراً، كأننا يا عصام لا ننتمي إليه، فهل يعيينا الاعتراف بأننا تائهون، لا نجد موقعنا فيه، لتسلّط العواطف والأوهام والغرور علينا؟ ترانا متطرفين في كل شيء: في

إيماننا وكفرنا، في حبنا وكرهنا، مما يجعلنا إما مقلدين وإما متعصبين إلى درجة التزمّت. لم تعد لنا شخصية يا صديقي، أكاد أجن أحياناً فإلى متى؟ إلى متى؟ العين بصيرة واليد قصيرة. لكم أحب أن نجري في بلدنا الظامىء إلى الحرية حوارات صريحة مع الناس، وبخاصةٍ الشباب لإنقاذهم من القلق والضياع، فإنهم محتاجون إلى من يأخذ بيدهم، إلى من يوجههم وينهض بهم ويلمّ شملهم، وأنا كفيل بأننا سنصبح عندئذ أمة قوية واعية، يهبّ شبابها أسوداً في وجه الأخطار الداخلية والخارجية التي تحيق بها لأنهم يكونون قد استردوا الثقة بأنفسهم وإمكاناتهم وقادتهم، فبدونها يضيع كل شيء، حتى الإيمان بالوطن. ولكن... (لكم أكره اضطراري إلى قول: لكن) ولكننا عنهم لاهون بقذف الشعارات، وإلقاء البيانات والخطابات، ناسون أنهم هم المستقبل، وأنهم في حاجة كبيرة إلى الغذاء الجيد لأفكارهم وأرواحهم قبل أجسادهم، إلى الحوار، إلى المنطق، إلى الحرية. أتدري يا عصام بماذا تنحصر أمنياتي، عندما أفتح الصحف التي نقرؤها، وهي محدودة كما تعلم، أو عندما أستمع إلى نشرة إخبارية في الراديو، أو التلفزيون؟ أني أتمنى يا صديقي أن ينعم اللّه علينا، في بلدنا وفي سائر البلدان العربية، بحكام يعملون بصمت، ولا بأس في أن يكونوا بكما نشيطين! لقد مجّت نفوسنا الكلام، وسئمت أرواحنا الخطابات، شبعنا منها إلى درجة التخمة، خطابات... وبيانات... وتصريحات! ثم لا أخفي عنك أن الناس جميعاً أصبحوا مستائين من قذف بعضنا بعضاً، رؤساء

ومسؤولين، بالسباب في الصحف والإذاعات، ومتأذين من تقلب الأهـواء، فنحن لا نثبت عند رأي أو ود، وصديق الأمس سرعان ما يتحول إلى عدو اليوم، والعكس بالعكس، ومع ذلك نقول إننا كلنا أخوة في العروبة، أشقاء! وعلى ذكر الخطابات الطويلة التي يتحفنا بها الزعماء أحب أن أنقل إليك أصدق وصف لها، عثرت عليه مؤخراً، وقد كتبه الفيلسوف الفرنسي "مونتسكيو" فقال: (جلّ الخطباء يعوّضون بالطول ما ينقصهم بالعمق). أما الحكمة العربية القديمة التي تعلمناها، وأعجبنا ببلاغتها جميعاً: (خير الكلام ما قلّ ودل) فإننا نسفنا الجسور التي تصلنا بها وبالذين قالوها، وتبرأنا من فضائلهم.

لا أدري إذا كنت مستمراً في قراءة مجلة "العربي"، تلك التي تصدر في الكويت، على كل حال أحب أن أنقل إليك خلاصة ما نشر فيها الدكتور زكي نجيب محمود (في عددها رقم ١٧٠، الصادر في يناير ١٩٧٣) عن المنطق الجديد والفكر الجديد في عالم اليوم، وعن بُعدنا الشاسع عنهما، لقد كشف هذا المفكر عن الداء، وختم مقالته بصرخة ألم يقول: (فإذا كان قادة الحضارة في عصرنا مشغولين بـ "التكنولوجيا" فنحن مشغولون بـ **"الكلامولوجيا!"** وأحسب يا صديقي أننا نبزّ أمم الأرض كافة بإتقان فن الكلام.

وحتى لا تتهمني أنا أيضاً بالبراعة في فن "الكلامولوجيا" أكتفي بما بينت، وأتمنى لك السلامة في الحل والترحال، ودمت لنا.

سالم

عجبت كيف أني لم أتسلم رسالة سالم الأولى، تلك التي لمّح بها في هذه الرسالة، فلا شك في أنها متأخرة، بعض الوقت ، وآمل كثيراً ألا تضيع.

إن لسالم لقطات بارعة في رسائله وفي أحاديثه لأنه يكتب كما يتحدث تماماً، ولكنني أتساءل: ألا يكون مسرفاً في النقد ومغالياً في الوصف؟ سأرد عليه غداً الأحد، بعد العودة من النزهة المقررة مع أصدقائي، أما الليلة فأفضل الرجوع إلى الملف الذي يتضمن رسائله ورسائل نزار وسمير. أحضرت الملف وبحثت فيه عن رسالة سالم المتعلقة بأختي هدى، فوجدتها مؤرخة في أيلول سنة ١٩٧٠ وقرأت فيها ما يلي:

(... تعشيت البارحة مع والدتك الخالة أم عصام، التي رجعت من رحلتها الطويلة مزودة بنشاط كبير، وأفكار جديدة، ولم أستغرب حديثها عنك وعن محبة الأساتذة والرفاق الذين تعرّفت إليهم لك، والرفيقات أيضاً... وقد سرني أن أسمعها تلهج بالدعاء الطيب لك والثناء عليك.

كانت في البيت وحدها مع هدى، فأخوك نبيل الذي أوشك على إنهاء خدمة العلم لا ينام في البيت سوى مرة في الأسبوع، أما أخوك بشار فقد كان غائباً ، على عادته، إما في السينما وإما في الملاهي مع رفاقه

"الخنافس" طبعاً، وقد اقترحت على الوالدة أن تدخله في خدمة العلم لأني أجد فيها خير دواء للقضاء على الميوعة واللامبالاة عند أمثاله، يكفي أنه ضيع سنة كاملة بعد رسوبه بالبكالوريا مرتين، وأظنك موافقاً على اقتراحي لعل بشار يجد نفسه ويصحو ويصبح رجلاً. كما أن والدتك ستتخلص بذلك من متاعبه، ولحيته الطويلة، وشعره المتدلي، وشجاره المتواصل مع هدى لأنهما أصبحا على طرفيّ نقيض... تصوّر أن عزيزتنا هدى التي نجحت في الفرع العلمي للبكالوريا بتفوق، وتسجلت في كلية التجارة قبل سفر أمك إليك، تصوّر أنها تفكر بهجر الدراسة نهائياً، وترغب في التفرغ للعبادة. يبدو أنها حضرت مع زميلات لها بعض الدروس الدينية، في أثناء غياب الوالدة، وتأثرت بها إلى درجة جعلتها تتحجّب وتزهد في الدنيا والعلم، وتعتقد أنها ستعرّض نفسها للهلاك إذا استمرّت في نهج حياتها الطبيعية. لم أصدّق عيني ولا أذني عندما رأيتها تستقبلني بتحفظ، وسمعتها تناقشني في هذا الموضوع بمنطق غريب عن المنطق، وغريب عن هدى الذكية، الميالة إلى العلم، المعتدلة في كل شيء. لا تخف يا صديقي سأقنعها مهما تطلب الأمر من جلسات معها، بأن الإسلام الصحيح لا يمنعها أبداً من طلب العلم ومن العمل والسعي نحو الأفضل. لقد وعدت والدتك بأني سأفعل ورجوتها ألا تجزع، وإذا اقتضى الأمر أن سأستعين بعالم ديني متنوّر لإقناعها فلن أقصّر في إحضاره للتحدث إليها. المهم في رأيي أن نقف دون تفشي هذه البدع المتزمتة في الوقت الحاضر، في الزمن

الحاسم الذي نستعد فيه لخوض معركة مصيرية مع إسرائيل نحتاج فيها إلى إسهام بناتنا ونسائنا في كافة الميادين، لأن شللهن الفكري يشلّنا جميعاً.

هذه هي الأبعاد الخطيرة للموضوع التي تقلقني وتقلق كل مواطن واع يفهم جوهر الدين، ويدرك مخاطر اللعب بسلاحه الحساس . لا تقلق يا عصام، سنقنع هدى بأننا ندرك مثلها أن إحياء الدين أصبح أمراً ضرورياً، كما تقول لأمها ولي وللجميع، وبأننا نبتغي له إحياء منطقياً، متناسباً مع روح العصر، والتطور الحديث، كما سنقنعها بضرورة الدخول إلى الجامعة لتتمة دراستها في الشهر المقبل. فإلى أن ألقاك في رسالة لاحقة طاب وقتك وحفظك اللّه.

سالم

إني مدين إلى سالم بخدمات كبيرة قدمها لأسرتي في غيابي، ولنجاحه في إقناع هدى باستئناف الدراسة، وبإرجاعها إلى حظيرة الاعتدال والمنطق، فلولاه، لولا عنايته بها، والأسلوب الحكيم الذي اتبعه لإنقاذها في الوقت المناسب، لتحوّلت إلى فتاة كسول، خاملة بلا طموح. وأنا سعيد بنجاحها في السنوات الثلاث الماضيات، وبأنها ستنال شهادة الليسانس من كلية التجارة في نهاية هذا العام الدراسي.

كفاني تفكيراً الليلة وقراءة وعيشاً في الماضي، والأجدر بي الآن أن أنام إذ أخشى كثيراً أن يمتدّ اللهو مع الرفاق في يوم غد إلى ساعة متأخرة من الليل.

كليفلاند في ١٩٧٣/٣/٢٥

عدت من نزهة اليوم مع الرفاق قبل منتصف الليل وآنست في نفسي رغبة في الكتابة. لقد أثارت في نفسي رحلة اليوم، والرواية التي شاهدناها على الشاشة "قصة حب" لواعج وخواطر فكتبت إلى سالم انطباعاتي عما رأيت وسمعت، وأجبته على ما ورد في رسالته الأخيرة إلي. قلت له إن ما جاء فيها هزني كثيراً، وترك في نفسي أثراً محموداً، قلت له إذا كانت دمشق قد تشوّهت فعلينا، نحن الشباب، أن نزيل عنها آثار التشويه وأن نعيد إليها نضارتها وجمالها، فدمشق كنز من كنوز الطبيعة، إنها مدينة صامدة، صابرة، تعرضت في العصور الغابرة لنكبات متعددة وغزوات مروعة، ولكنها خرجت منها جميعاً مظفّرة. إن لدمشق سراً، وإن لها سحراً، وأنا من الذين يعتقدون بأن سرها في قدرة سكانها على حمايتها، الأصليين والجدد الذين يتدمشقون، فأنا قلما سمعت بمدينة في العالم مثلها تصهر من يسكنها في بوتقتها، ولا بمدينة يتحوَّل اسمها إلى فعل يتصرف مثل دمشق، إذ أن من يقيم بها زمناً، ويتطبع بطباع أهلها يقال عنه أنه: تدمشق. قلت لسالم أيضاً أن سرها يكمن في غيرة أبنائها عليها، وصبرهم الصابر على المكاره إلى أن تحين ساعة الانفجار بثورةٍ على الظلم والتشويه، وقد شبّههم شاعر الشام الأستاذ شفيق جبري بنهرها

المشهور: "بردى" الذي يبدو وديعاً، متواضعاً، في مجراه الصغير في حين أنه قادر على إرواء الحقول والبساتين من منبعه حتى مصبه، وعلى تحويل الصحراء إلى واحة غضة مورقة بالظلال. وشاعر الشام مصيب في تشبيه الدماشقة ببردى لأن من خصائص هذا النهر الوادع الإتيان بالمعجزات، ومنها الفيضان الرهيب، بين حين وآخر. وأما سحرها فإنه هبة من الخالق كامن في مائها، وهوائها، وغوطتها، ومدخلها، وسمائها، ولياليها، لا يوجد له تفسير، ولكنه يتجلى في جمالها، وفي تفاني أهلها بحبها، وفي تعلق الغرباء بها، من شرقيين وغربيين.وقلت له أيضاً أن "يوري" اليابانية، خطيبة زميلي الدكتور "كيوشي" أقامت في دمشق أسبوعاً في العام الماضي، وحدثتني اليوم عنها قائلة أنها أسرت قلبها بسحرها.

فرغت من رسالتي لسالم وجلست أدوّن هذه الخواطر بنشاط لأن رحلة هذا النهار، وما جرى فيها من أحاديث، والفيلم الذي ختمنا يومنا بمشاهدته مما ينبّه الأعصاب ويستدعي التسجيل. قصدنا نحن الأربعة شاطىء بحيرة "ايفون" "AVON" في إحدى ضواحي كليفلاند، ووصلنا في الحادية عشرة صباحاً مزودين بأدوات الصيد، فقمنا بجولة صغيرة في البحيرة استغرقت ساعة على ظهر "النش" بخاري صغير. كان الجو بارداً وصاحياً، على غير عادة، لأن الأمطار تكون عادة غزيرة في شهر آذار، ولكن حظنا اليوم كان جيداً. اهتمت هيللا ويوري بتهيئة الغداء بينما كنا، زميليّ وأنا، نصطاد السمك، فنصبتا المائدة الموجودة في صندوق السيارة

ووضعنا عليها ما ابتعناه من الجبن والساندويش والحلوى، ثم ارتجلنا موقدة، وشوينا عليها السمكات التي وفقنا بصيدها وتغدينا. وهنالك، على شاطىء البحيرة الهادئة شربنا القهوة التركية التي أعددتها بنفسي وحملتها معي، وحدثتنا يوري عن زيارتها لدمشق حديثاً شيقاً أضافت عليه جاذبية كبيرة بأسلوبها الجميل، ومعلوماتها التاريخية. أقامت يوري أسبوعاً في بيت قريبها قنصل اليابان بدمشق فأتيح لها أن تتعرف إلى معالم دمشق القديمة فأعجبت بالمسجد الأموي، كما أعجبت بمتحفنا الرائع في تنسيقه، الغني في نفائسه، وبمنظر دمشق من سفح قاسيون. أما عن سكان مدينتنا فقد أحبتهم وقدرت حبهم للغريب، واستعدادهم لإرشاده ومساعدته إذا ما طلب إرشاداً أو مساعدة، غير أن أكثر ما استرعى انتباهها دماثة طبعهم، وحسن ضيافتهم. روت لنا أنها دُعيت، مع قريبتها زوج القنصل، إلى أحد بيوت حي "العمارة" لتناول القهوة. وقفتا أمام بابه الخشبي العتيق تتأملان نقوشه الجميلة، ففُتح الباب فجأة، وأطلت منه سيدة كانت متأهبة للخروج مع ابنتها، فحيتهما ببشاشة وأدركت أنهما أجنبيتان تتجولان في دمشق القديمة، لذا دعتهما لزيارة البيت وتناول القهوة بإصرار. وتصرح يوري أنها لن تنسى ما لاقت عند تلك الأسرة المضيافة من حفاوة وتكريم، فقد قطفت لها ربة المنزل كمية من الياسمين، وعلمتها كيف تصنع من الزهرات النضرات عقداً وسواراً، ثم طافت معها ومع قريبتها في أرجاء الدار الجميلة المبهجة لكي تعطيهما فكرة واضحة عن جنات دمشق المغلقة،

ذات الأبواب الخارجية الضيقة القصيرة. وبعد دمشق زارت قلعة الحصن في جولة قامت بها مع أقربائها، وحلب واللاذقية، فأعجبت بالشاطىء السوري وبآثار حلب واسواقها، ثم ختمت رحلتها في تدمر، "عروس الصحراء"، كما علّموها أن تقول. وعندما أتت على ذكر الليلة المقمرة التي قضتها في تدمر، وصفت لنا شروق الشمس على أطلالها وصحرائها، وشفافية الأشعة وسحر المكان وقالت:

ـ (أشعر أن قطعة من قلبي ظلت معلقة بتدمر وبملكتها زنوبيا العظيمة. لقد أضحت تدمر تراود أحلامي وأتمنى كثيراً أن أتمكن من الرجوع إليها).

كانت هيللا تسمع وصف يوري باهتمام فعلقت عليه قائلة:

ـ (اسمع يا عصام، إنـي قررت زيارتك في دمشق على أن تصحبني إلى تدمر، فهل أنت موافق؟)

فأجبتها على الفور:

ـ (أوتشكّين بأني سأكون سعيداً باصطحابك للقيام بجولة أثرية في وطني؟

ـ ستكونين قد أسديت إلي معروفاً كبيراً إذا نفّذت هذا القرار، أتعلمين لماذا؟)

فلم تدرك ما عنيت لذا أضفت قائلاً:

ـ (لأنك ستثيرين همتي لزيارة تدمر وغيرها فأنا، ككثرة السوريين، لا أعرف سوى تاريخ بلادي إذ قلما نقوم برحلات للتعرف إلى معالمها الأثرية.)

فقال كيوشي:

ـ (أنتم لا تنفردون بهذا التقصير يا عصام لأن البعيد هو ما يستهوي الناس

ويشوقهم بمعرفته أكثر من القريب، ونحن في اليابان نؤجل زيارة آثارنا المحلية إذ نحسب أن بوسعنا التعرف إليها في أي وقت، فترانا نعرف من بلاد الغير أكثر ما نعرف من بلادنا).

ثم حدثنا كيوشي عن عزمه على التعاقد قريباً مع منظمة الصحة العالمية، فنظر إلى يوري مسروراً وقال:

- (إن في وسعي أن أطلب العمل مع المنظمة في الشرق الأوسط، حيث يكون مقري الدائم إما في بيروت، وإما القاهرة، وهكذا تتحقق أمنيتك بالعودة إلى تدمر. وإذا كنت عاجزاً عن تقديم خاتم ماسي إليك يوم زفافنا فإني مستعد لأن أهدي إليك هذه الرحلة التي ستتيح لنا فرصة لقاء عصام من جديد).

وقبّل يوري التي عانقته شاكرة، ثم توجه إلى هيللا يقول:

- (وأنت يا هيللا، فما عليك إلا التريث في تحديد تاريخ رحلتك إلى الشرق الأوسط ريثما نكون قد استقررنا فيه. ما أحلى أن يجتمع شملنا في العام المقبل!)

فأجابته هيللا وقد أضاءت وجهها بسمة ساحرة:

- (سيكون حلماً لذيذاً أيها الأصدقاء، وأنا من الذين يؤمنون بتحقيق الأحلام عندما توجد الإدارة والمال، فما عليّ سوى الشروع بإدخار ما يلزم من المال...)

ورحنا نتصور ذلك اللقاء في عاصمة الأمويين فأنبأت أصدقائي بأنه لا توجد في سورية بحيرات كبيرة تشبه بحيرة "ايفون"، غير أن فيها شواطىء

جميلة، وجبالاً وسهولاً ومتنزهات مختلفة عن كل ما يعرفون، لها طابع خاص وجمال ذاتي.

لاحظت أن هيللا كانت تصغي إلي باهتمام كله حب وتشوّق، إنها من الذين يشدهم الشرق إليه، وقد رددت على مسامعي خلاصة ما قرأت عنه في الماضي، واعترفت بأن رغبتها في معرفة المزيد عنه، عن تاريخه وسكانه وتقاليده وروحانياته قد تضاعفت منذ عرفتني. لذا كنت أبحث دائماً عن كتب ونشرات إعلامية مصورة عن بلادي لأهديها إليها، فتسر بها وتلتهمها التهاماً، فقد أهديت إليها، يوم ميلادها الأخير، نسخة جميلة من كتاب "ألف ليلة وليلة" ومؤلفات جبران خليل جبران باللغة الانكليزية، ولحظت اليوم، ونحن في طريقنا إلى كليفلاند من الضاحية أنها أظهرت تعلقها بي أكثر من السابق، فقد جلست إلى جانبي في صدر سيارة كيوشي، وأمسكت بيدي طوال الطريق، ثم فاجأتني تسأل:

- (أتدري يا "إيسام" أنك في مثل هذا اليوم من الشهر المقبل ستكون متوجهاً إلى سورية في الطائرة؟ فنحن الآن في أواخر شهر آذار وأنت مغادر في نهاية نيسان، لذا سأقضي فرصة عيد الفصح معك هنا، لا في السويد).

فقلت لها بلهجة يشوبها الحرج والسرور معاً:

- (الأفضل يا حبيبتي ألا نفكر بالفراق، وألا نعدّ الأيام، فلدينا في هذا الشهر رصيد دسم من الرحلات الصغيرة واللقاءات الهانئة، سنستهلكه بهدوء ونحتفظ بذكراه للآتي من الأيام، أليس كذلك؟)

لقد قبلتها بحنان وضممتها إلى صدري وفي رأسي ألف سؤال يدور. ولأول مرة منذ عرفت هيللا تمنيت أن نتخاصم، أن نتشاجر ونختلف قبل رحيلي لكي أتخلص من الغصة الموجعة التي أحسست بها لفراقها، وخشية أن تحزن وتتعذب من أجلي. كنت ناعم البال في علاقتي معها ليقيني بأنها امرأة واقعية، قوية الإرادة والأعصاب، بخلاف النساء العاطفيات، بل اللواتي يغالين في عواطفهن لأن هيللا ليست مجردة من العاطفة الناضجة على الرغم من مظهرها البارد، ولكن ما بدر منها اليوم، ولا سيما في أثناء عرض الفيلم أقلقني كثيراً. إن "قصة حب" رواية مؤثرة جداً في تمثيلها وحوارها وموسيقاها، تستحوذ على المشاهد، وتحركه بمهارة مما يجعله مأخوذاً بحوادثها، يضحك ويتعجب ويدمع بلا إرادة. ولأول مرة منذ ثلاث سنوات تقريباً رأيت هيللا تبكي بتؤدة في بادىء الأمر، إذ كانت تمسح دمعاتها من تحت النظارة التي تستعملها في السينما، ثم رأيتها تغالب نوبة بكاء حادة انتابتها في نهاية الفيلم. إن جميع من في الصالة تقريباً قد تأثروا بالقصة والتمثيل، ولكن هيللا كانت الشخص الوحيد الذي بكى بحرقة، وخجل من بكائه. دعوت كيوشي ويوري إلى مقهى قريب من السينما لتناول مشروب مرطب، وسرني أن أرى آثار البكاء على وجه يوري، وأن أسمع كيوشي يعلق على ما شاهدناه بعبارات مزج فيها الجدّ بالهزل وأضحكتنا جميعاً. وحتى لا أترك صديقتي وحدها في تلك الحالة المهتاجة دعوت الأصدقاء إلى العشاء ولكنهم اكتفوا بتناول الجبن واللحم

البارد مع المشروب، وأصروا على الرجوع إلى بيوتهم للنوم المبكر استعداداً لأسبوع عمل جديد بنشاط. وعندما اقترحت على هيللا أن تقضي السهرة معي رجتني برقة أن أعذرها فأدركت أنها بحاجة إلى الانفراد بنفسها فأوصلناها أولاً إلى بيتها ثم عدنا، كل واحد إلى منزله.

لا ريب في أن لبكاء هيللا الليلة أسباباً متعددة، وأن حنينها لعشّها المتهدم، عندما شاهدت آثار السعادة الحقة على بطليّ الفيلم "أوليفر وجليفر" في بيتهما الصغير، أحد هذه الأسباب، كما أن مأساتهما، التي تمثل مأساة الإنسان في الوجود، وغربته ووحدته، وانهيار آماله، كانت من دوافع حزنها وبكائها. ومن يحسب أن الغربيين أضعف منا عاطفة يكن مخطئاً، إلا أن الفارق بينهم وبيننا، نحن الشرقيين، هو قدرتهم على التحكم بعواطفهم لكونهم واقعيين، يحكمون العقل في تصرفاتهم. إن أسلوب تربية أولادهم يختلف عن أسلوبنا، كما أن سلوكهم في الحزن أرقى من سلوكنا، فقد شاهدت عن كثب المنهج الذي يتبعه الدكتور جاكسون وزوجته في تربية أولادهم، وأعجبت به، كما أتيح لي أن أحضر مأتماً كبيراً يوم توفي ابن محاسب الجامعة في حرب فيتنام (وهو شاب في الثانية والعشرين، من أنضر الشباب) فوجدت أن الفرق بين موقفنا نحن من الموت وموقف الغربيين كبير: رأيت صور الشاب الفقيد معروضة في بيت أبويه حين ذهبت لتعزيتهما بعد الصلاة الغيابية التي أقيمت على روحه في الكنيسة، وذهلت حقاً، وامتلأت إكباراً لأهله أمام حزنهم الصامت الذي يدل على

ضبط النفس، ورقي خلقي يدعوهم إلى حمل التفجع بكبرياء. والأفضل لي ألا أسترسل بالمقارنة بين أساليب تعبيرنا عن الحزن والفرح وبين أساليبهم لأنها ستدفعني حتماً إلى المناظرة بين الرقيّ والتخلف، إن لم أقل بين الصدق والتمثيل، في بعض الأحيان!

كانت هيللا تفكر في قضاء فرصة عيد الفصح في السويد، ولكن ما سمعت منها اليوم عن عزمها على البقاء في كليفلاند معي سيضطرني إلى إجراء تعديل في برنامج مقبل. كنت راغباً في لقاء ابنة عمتي منى خلال هذه الفرصة، في المكان الذي تختاره هي، أما الآن فسوف أحدّد لهذا اللقاء موعداً قبيل الفصح أو بعده، فلا بد إذن من الاتصال بها في غضون هذا الأسبوع للاتفاق على تاريخ هذا اللقاء الذي أرقبه بشوق كبير.

أرى أن الساعة بلغت الحادية عشرة، وأن كتابة الرسائل وتدوين المذكرات عمل ممتع، أخاذ، يستغرق الإنسان فيه كما يستغرق لدى إجراء العمليات الجراحية، وينسى كل شيء دونه. لا ريب في أن سالماً ونزاراً سيسران برسالتي المسهبة التي دبجتها إليهما الليلة، وشرحت لهما فيها رأيي في فيلم "قصة حب" لأنها أطول رسالة كتبتها منذ زمن بعيد. كما أرى أنه بوسعي الاتصال بصديقي اللبناني: "رئيف شاطر" في هذه الساعة إلى مدينة برينستون، حيث يقيم، لأخبره بأننا سنقضي عنده نهاية الاسبوع المقبل، هيللا وأنا، تلبية لدعوته القديمة، تلك التي تتجدّد في كل شهر، وهكذا أكون قد نفّذت أحد المشاريع الترفيهية المفيدة قبل رحيلي من الولايات المتحدة الأميركية.

كليفلاند في ٢٧ / ٣ / ١٩٧٣

أشعر بدوار يعبث بأفكاري منذ أمس وينقلني إلى دمشق. رسالة سالم المتأخرة التي تسلمتها البارحة هي السبب في هذا الدوار، كتب إلي هذا الفيلسوف من بيروت (كما كان يفعل دائماً خشية إزعاج الرقيب، ورفقاً بأعصابه على حدّ تعبيره) رسالة طويلة جاء فيها ما يلي:

(إني أكبر فيك شجاعتك يا عصام، عفواً يا دكتور عصام، وأكبر فيك وطنيتك فأهلاً بك ومرحباً، لا من أجل سورية فحسب، بل من أجلي أنا، بدافع أنانيتي بالطبع، ومن أجل والدتك وأخوتك والرفاق. أقسم باللّه بأنك بطل وشجاع، فَمَنْ غيرك يستبدل ذا علة بصحيح؟ إنك تذكرني بالفيلسوف اليوناني "بلوتارك" "PLUTARQUE" الذي تعلم في أثينا ونبغ فيها، ثم رجع إلى قريته ليدرّس ويقيم، فزاره أحد المعجبين ذات يوم وسأله قائلاً: "لم لا تسكن في أثينا، أيها المعلم، حيث يعيش أمثالك الفلاسفة ويدرّسون؟ لِمَ تترك المدينة العظيمة وتقيم في هذه القرية الصغيرة الضائعة؟ فأجابه "بلوتارك" بهدوء:

ـ لقد اخترت العيش في قرتي الصغيرة عمداً، يا عزيزي، لكي لا أزيد في صِغَرِها إذا هجرتها!".

أما بعد، بعد هذه المقدمة، أو هذا الانفتاح على الموضوع كما يقولون، سأشرح لك غايتي من هذه الرسالة: أود بدافع حبي لك،

وحرصي على صحتك النفسية، أن أجنّبك خيبة أمل كبيرة بعد رجوعك إلينا. قرأت في سطور رسالتك وصفاً رائعاً لدمشق، ولأشواقك لها ولنا، فهل نسيت أثر الغياب الطويل في تجميل الأشياء والذكريات، وقدرة البُعد على طرح براقع ذهبية عليها؟ دعني يا عصام أصف لك ما ينتظرك هنا بصراحة: أنت تحلم بدمشق، وتتخيلها مشرقة نظيفة وجميلة، فلا تنتظر أن تجدها كما كانت من قبل لأن دمشق، مدينة السحر والنور، مدينتنا الخالدة، عرين العروبة الباكية قد تغيّرت، وتغيرت كثيراً. لقد تشوّهت دمشق، لقد تغيرت يا عصام وليست عيوننا هي التي تغيرت. كانت تَعُدُّ، قبل سفرك، سبعمائة ألف نسمة، فأضحت تعد أكثر من مليون نسمة اليوم، فاختلّ التوازن، وضاقت البيوت والأحياء والأسواق بمن فيها، ونشأت أزمة الإسكان، وشحت المياه والأنهار، وارتفع الضجيج، وتلوث الهواء من انتشار المصانع في الغوطة، وهي رئة المدينة، ومن كثرة سيارات المازوت في دمشق وسائر أنحاء البلاد. فنحن هنا آخر من يفكر بصحة السكان، ننتج النفط ونكرره ونبيح استعمال المازوت... فلا تحلم بعد اليوم بنزهة ساعة سيراً على الأقدام في "طريق الصالحية" أو في غيره من الشوارع، ولا بجولة ليلية في أحياء دمشق القديمة: "العمارة" أو "القنوات" أو "الشاغور" أو غيرها، كما كنا نفعل سابقاً للاستمتاع بسحر الحجارة العتيقة، والبيوت الشامية الحالمة المغروسة في الأزقة والحارات، ولا تأمل يا صديقي بقضاء سهرة في السينما أنت ووالدتك وأختك، وذلك لأن شوارعنا اكتظت بالناس والباصات والدراجات، ولأن أحياء دمشق القديمة

أضحت قذرة مهملة، بعد أن تحولت دورها الأثرية الرائعة إلى مدارس، وفنادق، بل خانات، وأخيراً لأن دور السينما قد اهترأت ولم نبن داراً جديدة واحدة منذ سنوات. لا تحلم يا صديقي، لا تأمل، كل شيء قد تغير في دمشق، ولم نشيد فيها فندقاً واحداً يليق بأصغر مدينة او عاصمة لإيواء السياح وجذبهم، لذا تراهم يقيمون في لبنان، ويكتفون بقضاء ساعات معدودات في عاصمة الأمويين التي يحلمون بزيارتها، ويتكبدون النفقات والمشاق للوصول إليها وإلى سائر معالم سورية الأثرية. ولعله يهمك أن تعلم أيها الطبيب أننا لم نبن في غيابك مصحاً واحداً أو مستشفى كبيراً يفي بحاجة المرضى الفقراء، فالميسورون يستطيعون دخول المستشفيات الصغيرة في بلدنا، أعني الخاصة منها، أو السفر إلى لبنان للمعالجة، لكننا سنفعل بعد قدومك الميمون إن شاء اللّه! ولا تظن بعد كل هذا الشرح أننا نحن لم نتغير، لا! لا تخطىء، عشرة أعوام انقضت وزُلزلت الأرض زلزالها، فلا الأسواق هي التي كنا نفرح بعبورها لشراء حاجاتنا، ولا الناس هم الذين فتحنا عيوننا على تضامنهم، ووفائهم، وغيرتهم على إخوانهم، لقد تغيرنا نحن يا عصام، فالسر حقاً ليس في المكان، كما يقول القدماء، إنما هو في السكان، رحم اللّه الشاعر الذي قال:

نعيبُ زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيبٌ سوانا!

وإذا كنت تنتظر مشاهدة ساحة جميلة ، أو نصب فني أقمناه في ساحاتنا القديمة، أو الحديثة التي خططناها في السنوات الأخيرة فأنت واهم لأننا حولنا دمشق إلى ما يشبه القرية الكبيرة، وكان المأمول أن نحوّل القرى

والمدن الصغيرة إلى ما يشبه دمشق، أليس كذلك؟. لقد سمحنا للباعة المتجولين بالانتشار على نطاق واسع في شوارعنا فأصبحوا يحتلون الأرصفة لبيع السلع المتنوعة، وسوف تراها بأم عينك معروضة على طول "شارع النصر" وفي كل طريق عام تقريباً. أما أسواقنا القديمة فالأفضل ألا أصف لك ما نابها من إهمال وفوضى فالطنابر فيها، وحتى في بعض الشوارع، والعربات الخشبية التي تُجَرّ باليد تزداد يوماً بعد يوم، وليس من يفكر في مشكلات السير التي تنجم عن وجودها. وعلى الرغم من أننا نظمنا السير في مدننا بتركيب الأنوار الخضراء والحمراء فالمشاة عندنا يعرقلون نظامه لولعهم الفطري بالمخالفة، لذا نحن في أمس الحاجة إلى مجموعة خبراء في علم تنظيم السير وفنه، تدعمهم الهيئة المسؤولة عن تطبيق النظام بتطبيقه أولاً على أفرادها، وذلك ليكونوا خير قدوة للشعب. وأحب أن أضيف أن شعبنا قابل للتنظيم لا ينقصه إلا التوجيه، وإني من الذين يؤمنون بالقادة أكثر من إيمانهم بالشعوب، كما تعلم.

أتذكر يا عصام إعلانات معرضنا الدولي الملونة المنتصبة في مدخل دمشق كالتي توجد في جانب مطعم الشرق؟ لقد فرحنا بها، وبالكرة الزرقاء التي نصبناها في وسط ساحة الأمويين للإعلان عن الشركة السورية للطيران، فثبتناها منذ سنوات، لا نكل من رؤيتهما ولا نمل، ولا نفكر حتى بتجديد الزجاج المكسور والطلاء البالي، وكأنهما تحفة فنية نادرة لا يستعاض منها ببركة ماء منورة في الليل، كالتي توجد في ساحة المصرف

المركزي على سبيل المثال. واخترعنا يا صديقي ما يوازي هذه التحف قبحاً ورخصاً لتزيين ساحة قصر الضيافة، والإعلان عن أعيادنا القومية بالمصابيح الكهربائية على قمة جبل قاسيون، ونحن سعداء بما تفتقت عنه عبقريتنا في فن التجميل والتزيين، كأننا لم نشاهد، صوراً على الأقل، لساحات بلاد العالم ونصبها ابتداء بموسكو وانتهاء بمدريد... وأنا أراهن على أنه لو أقيمت في العالم مباراة لاختيار أبشع نُصُب وإعلانات وساحات لنلنا نحن الجائزة الأولى بامتياز!

أما شوارع دمشق، المدينة الجديدة، وهي التي عرفت منذ تخطيطها بالنظافة فقد ساءنا أن تحافظ على نضارتها فأمرنا ببناء صناديق من الإسمنت المسلح على أرصفتها لجمع النفايات. كلفت هذه الصناديق بلديتنا مالاً كثيراً فألزمت السكان بدفع النفقات، وكانت النتيجة أن ضاقت الأرصفة أمام العمارات، وضاقت البراميل الموضوعة في الصناديق بمحتوياتها فأصبحت تفيض بها وبالبرغش لتفاعل المواد الكيميائية، وتجذب الحشرات وتستضيفها ثم توزعها على البيوت ومداخلها! كما أصبحت تعطر الأجواء بروائحها الفاسدة التي تغلب أريج الورود والياسمين، والفاسد، كما تعلم، أقوى من الطيّب، أظنك لم تنس هذه القاعدة. وبالمناسبة أحب أن أعلمك أيضاً بأننا حفرنا جوراً في سائر أحياء دمشق تتسع لشخصين أو ثلاثة لاتخاذها ملاجىء، كما قالوا، بعد نكبة حزيران. إنها عبارة عن زنزانات ضيقة، عميقة، لا أدري كيف يمكن النزول إليها

والصعود منها، فالأرجح أن تصميمها لم يكن قد انتهى بعدُ يوم تركت هكذا فخاخاً للمارة، وأصبح ينطبق عليها القول الشائع: "الداخل إليها مفقود، والخارج منها مولود". لقد كلفت الحكومة جهوداً ومبالغ طائلة من المال، فوقع فيها من وقع، وتكسر بسببها من تكسر، ومن هؤلاء الحاجب "أبو علي" الذي يعمل في مكتبي. كان راجعاً من عمله مساءً فزلّت قدمه في الحفرة الواقعة في حي "ركن الدين" بالقرب من داره، وانكسرت ساقه، مما عطله عن العمل شهرين. وبعد أن تكررت أمثال هذه الحادثة، وتفاقم عدد المتضررين من الجور، بين رجل وطفل وامرأة، (مائة وسبعون ضحية حسب إحصائية مستشفى دمشق) ووقع فيها أيضاً بعض الدواب، تنبّه المسؤولون إلى خطرها فغطوا بعضها بألواح من الصاج، ولا أعلم لماذا تركوا بعضها الآخر مفتوحاً، وسوف أريك إياها في منطقة السبكي حيث أقطن.

وإذا سألتني عن حدائقنا العامة فإنها ما زالت قليلة جداً بالقياس إلى تكاثر الأطفال، لذا ترى أطفالنا وشبابنا منتشرين في الشوارع والحارات للعب بالكرة، وتنشق الهواء الطلق، فكل واحد منا يشعر بهذا النقص، ويتمنى أن نصبّ عنايتنا بالدرجة الأولى على تأمين الصحة والهدوء والرعاية للأولاد والشيوخ. حدثتني والدتك عن اهتمام الغرب بأطفاله وشيوخه، ووصفت لي حدائق البلد الذي أنت موجود فيه، وبساتينه الغناء العامة التي تشبه الفردوس، وهي تتحسر على أولادنا وشيوخنا كلما

تذكرتها. واعلم أيها الطبيب أننا نفتقر كذلك إلى ملاعب رياضية تتناسب مع عدد شبابنا وأولادنا لتدريبهم وتربيتهم، وإلى نواد ومكتبات لتوجيههم وتسليتهم بما يعود عليهم بالنفع صحياً وفكرياً، فنحن حتى غاية هذا اليوم مقصرون في تنظيم رحلات ومباريات لشبابنا كما تفعل البلاد النامية والمتقدمة، لذا ترى شبابنا يتسكعون في الطرقات والملاهي الرخيصة، ويشكون من الضجر، ونشكو نحن من فراغهم الخطير، وسطحيتهم، ونستغرب ظهور نزعات تقليد الهيبية والإجرامية بين صفوفهم. ولا أخفي عنك أن أكثر ما يؤذيني هو منظر شابين يسيران بخطى كسلى، ممسكين يداً بيد، مشية المزهوّين بقاماتهم الفارغة، الجاهلين أبسط قواعد الأدب واللياقة، والمسؤولية الاجتماعية.

ومع ذلك أنا لا ألومهم، بل ألوم بالدرجة الأولى البيت والمدرسة وكل ما يرديهم في الفراغ والتميّع بدلاً من أن يخلق منهم شباباً طليعياً، سليماً في تكوينه، ومفيداً لمجتمعه وبلاده. إن شبابنا حزين يا عصام، مضطرب، لا أمل يغذيه ولا ابتسام يبهج نفسه فيرتسم على شفاهه. رؤيته تحز بالنفس وكأنه، كما يصفه صديقنا سمير الشاعر: "ربيع فائض بالوعود عصفت بأزهاره رياح عاتية!" وهل يعقد الثمر إلا بالزهر؟

هذه لوحات من مدينتنا اليوم، ومن حياتنا اليومية، صورتها لك بأمانة ومع ذلك اعتذر عن صراحتي الجارحة، وليس ما يشفع لي سوى أني متألم ومكبوت، وحريص على صحتك النفسية كما قلت لك في

مطلع هــذه الرسـالة، فكفـاني هـذا النهـار بوحـاً وشـرحاً. لـن أتـأخر عـن تزويدك معلومات أخـرى، وبأخبـار نـزار وسـمير والأهـل، فـإلى اللقـاء في رسالة تالية مع مودتي وخالص الترحيب بمقدمك.

سالم

قرأت رسالة سالم مجدداً بعد رجوعي من المستشفى مساء أمـس وأخذت أفكر في مـا جـاء فيهـا. سـاءني أن أجـده ثـائراً، متألمـاً، غـير أنـي أدركت أن السبب في ثورته واستيائه هو ما يشعر به من كبت. إنـه مؤهـل في نظري لتقديم خدمات كبيرة لوطنـه عـن طريـق أي عمـل لائق بثقافتـه ومواهبه وإخلاصه، أو عن طريق الكتابة، ولكـن أبـواب النشـاط مقفلـة في وجهه، فقد حاول، بعد أن حاز إجازة الحقوق، ولكنـه أخفـق في محاولاتـه لأنه ابن فلان... عانى كثيرون في بلدنا إذ ذاك من عواقب الحرب الطبقيـة التي شُنّت في وطننا أيام الوحدة، وكانت شيئاً مستحدثاً وغريباً في سـورية حيث أن أكثر السكان ينتمون إلى الطبقة الوسـطى، وحيـث كـان النضـال الوطني يجمع طبقات الشعب كافة تحت لوائه، ويوحد بينهم دونما تفرقة أو تفكير بما يمت إلى الأصل والثروة والمنشأ بصلة. وأذكر أنه جاء يوم، تعرّض فيه أبناء الأسر المعروفة، الدمشقية وغيرهـا، لمضايقـات علنيـة فتفـاقم الأمـر وأدى إلى هجرة بعـض النـاس، وإلى انسـحاب بعضهـم الآخـر مـن الحيـاة الاجتماعية وانزوائهم في بيوتهم، فقال لنـا سـالم ذات مسـاء، وكـان نـزار حاضراً: ـ خطرت لـي أمـس فكـرة عبقريـة، أن أتقـدم إلى دائـرة الأحـوال

الشخصية بطلب لتغيير كنيتي، فأصبح: "سالم فوزي" بدلاً من أن أظل حاملاً عبء اسم: "الحصاد" لعراقته في الجهاد الوطني... فالوطن يا أخواني للجميع، وأنا مصر على العيش والعمل فيه، فلم لا أبادر إلى تغيير اسمي؟

أعجبتنا النكتة يومئذ وأخذنا نستعيد ما سمعناه من النكات والنوادر حول ما يضايق الناس، إذ كانوا لا يجدون غير التنكيت والتندر متنفساً. وكثيراً ما كان سالم يحذر نزاراً من عواقب التفرقة بين أبناء الوطن، وتأليب الطبقات الشعبية بعضاً على بعض، فهي تنزع، في سورية خاصة، إلى التعايش الودّي أكثر من نزوعها إلى التباغض والتنافر والانقسام، فكان نزار يقتنع بآراء سالم أحياناً، ويخالفه أحياناً أخرى، فنستمتع، سمير وأنا، بحوار الصديقين، ولا نتوانى عن المشاركة فيه. وأذكر أن نزاراً كان يقترح على سالم التفرغ للكتابة، لقوة بيانه، وحججه، وسعة اطلاعه، فكان سالم يفحمه بالقول:

ـ وأين أنشر يا صديقي؟ هل تتعهد لي برخصة لإصدار صحيفة أو مجلة حرةٍ مستقلة عن كل طابع حزبي أو سياسي؟ ثم متى كان الأدب في بلدنا يطعم خبزاً؟ ومتى كانت الصحافة النزيهة رائجة فيه؟ لا ! أشكرك وأؤثر الاستمرار في مكتبي، وفي تغذية ثقافتي التي ما زالت ناقصة.

وأذكر جيداً أنه قال لنا، في حفلة أقامها سمير لتوديعي:

ـ بدأت أفكر بكتاب أؤلفه، ويسرني أن أعلمكـم بعنوانـه، غـير أن إعـداده ربما يستغرق خمس سنين، أو أقل أو أكثر.

فسأله نزار متحمساً، وهو، كما قلت لا يقل عنا إعجاباً به وحباً له:

ـ انطلق أيها الفيلسوف! ما هو العنوان؟ لأن الكتـاب يـدل عليـه عنوانـه في كثير من الأحيان.

فقال سالم بكل إيمان وبساطة:

ـ "دعوة إلى الحب" فهل يعجبك؟ وأنت أدرى بما يولّد الحـب مـن تسـامح وتضامن و...

دهمتني هذه الذكريات بعد قراءة رسالة سالم وشغلتني عن تهيئة عمل الغد، فنفضتها عني ونهضت ففتحت ثلاجتي وتناولت منها عشائي، ومن ثم دخنت سيجارتي الأخيرة واستلقيت على المقعـد لأقـرأ بحثـاً مهمـاً قبل أن أنام.

كليفلاند في ٣١ / ٣ / ١٩٧٣

خصَّصت أيام هذا الأسبوع لإنجاز معاملات السفر، ومنها الحجز في الطائرة، وشحن الفائض من أمتعتي، لكي يطمئن فكري. كنت أظن أن ترتيب تلك الأمتعة قبل تسليمها للشركة المسؤولة عن الشحن في الباخرة والتأمين أمر عسير، معقد، لا أستطيع القيام به بمفردي، ولكني أنجزته من غير أن أستعين بهيلا، فوجدت أن مجرد البدء بأي عمل، نتوهم أنه صعب، يسوقنا إلى تنفيذه، ويجعله أسهل مما حسبنا. لم أكن أتوقع أن تستوعب حوائجي الخاصة، من كتب وصور وثياب وغيرها أربعة صناديق كبيرة، والمهم عندي أنها ستصل إلى بلادي بعد حوالي شهرين حسب تقدير الشركة التي شحنتها الباخرة، وهذا يعني أني سأتسلمها بعد وصولي بشهر واحد. كما أني انتقيت الهدايا لأهلي ورفاقي بإشراف هيلا، فأنا أثق بذوقها، واعترف بعجزي عن القيام بهذا الأمر وحدي لجهلي به من جهة، ولقلة خبرتي من جهة ثانية. فقد كانت الأسواق، وما زالت، هماً ولغزاً بالقياس إلي، أكره الطواف فيها، ولهذا كانت هيلا والرفاق يتطوعون بابتياع ما يلزمني من ملابس ضرورية.

أما أفكاري فما زالت موزعة بين الذين أعيش بقربهم هنا وبين الذين سألقاهم في بلدي قريباً، بل أصبح أولئك البعيدون جداً عني

يشغلونني كثيراً في ساعات يقظتي ونومي، وبت أشعر أنني سأغادر هذه البلاد التي علمتني ورعتني خلال ست سنوات ونصف سنة غير آسف، على الرغم من الأيام الحلوة التي عشتها فيها. إن جذوري الشرقية تشدني بقوة، وتغريني بمستقبل يتطلب نضالاً طويلاً، وبلقاءات مثيرة مع رهط أصدقائي، والذين سأتعرف إليهم. أعلم أني سأستغرق في العمل بعد وصولي مباشرة ولكني سأجد متسعاً من الوقت للمطالعة، والرياضة، ولقاء الأصدقاء إذا نظمت حياتي ، كما يفعل الغربيون، تنظيماً دقيقاً مستنداً إلى التخطيط. ستكون اجتماعاتي بالرفاق للتداول بما يهمنا ويشغل بالنا على الصعيدين القومي والاجتماعي، ولكني ألمس اختلافاً كبيراً بين تقويمهم للأمور وتقويمي لها من رسائلهم إليّ، لعل سببه نظرتي البعيدة الصافية لما يحدث، وتأثري بالبيئة التي عشت فيها. يعجبني أسلوب نزار في المناقشة والكتابة لأنه هادىء الطبع، رحب الصدر، يحسن الإصغاء إلى الآخرين ولا يتشبث برأي إلا إذا تيقن من صوابه. إنه يشبهني في ميله إلى النقد الذاتي، وجرأته على الاعتراف بالخطأ وبضرورة مراجعة النفس، وقد حفظت له رسالة كتبها إلي في مطلع عام ٧١، بعد ظهور "الحركة التصحيحية" في سورية مباشرة، وسررت إذ علمت أن الناس إستبشروا بتلك الحركة، وتوسموا الخير فيها، وأنها فرجت عنهم بعد كبت طال أمده، ووعدت بإرجاع ما فقدوه قبلها من حرية وكرامة. ومما أعجبني في رسالة نزار تلك، وجعلني أتحقق من نضجه ومرونته أنه انتقد التعسف والانحراف لدى المتنفذين قبل إعلان الحركة التصحيحية، واعترف لي بأنه كان يعارضهم

بشدة في الاجتماعات الحزبية، ويحذرهم من عواقب التطرف والطغيان. أما سالم فقد وصف لي نقاشاً جرى بينه وبين نزار إذ ذاك، فقال له بصراحته المعهودة وبأسلوب لا يخلو من السخرية والمرارة: (... أيها الرفيق المعتدل الآن، يا عزيزي نزار، الوعود الجديدة دسمة ومفرحة، ولو لم نعش محرومين من الحرية ومجردين من الكرامة منذ آذار ٦٣ لما كانت الحركة التصحيحية سُمّيت بهذا الإسم. لقد وعدتم في السابق باحترام المواطنين وحقوقهم، وسلبتم الناس حريتهم وكرامتهم، فكيف نثق الآن بالوعود؟ وأين الفضل في تأكيد صيانة حقوق مقدسة ينص عليها الدستور، ولا منة لأحد في احترامها؟ كنا نصطف يا نزار أمام مبنى الأمن العام في دمشق وغيرها كقطيع الغنم، وننتظر الساعات الطوال، عمالاً وطلاباً، شباباً ونساء وشيوخاً، لنتقدم بطلب إذن للسفر إلى لبنان حيث يوجد لنصف السوريين، بلا مبالغة، مصالح معاشية أو دراسية، أو روابط عائلية وثيقة! وعلى كل حال ما زلنا ننتظر تحقيق الوعود واحترام العهود!).

كانت رسالة سالم يومئذ مسهبة ونارية، غير أنه أعلمني بعدها بشهرين أن الاعتداءات المفجعة على المواطنين، كتوقيفهم مثلاً لمجرد تقرير كاذب أو مغرض بدون مذكرة توقيف، ونسيانهم في المعتقلات بلا محاكمة، إلى آخر ما هنالك من إجراءات تعسفية قد مُنعت، كما أن "أذونات" السفر إلى لبنان قد أُلغيت. المهم الآن أني تلقيت رسالة طويلة من الفيلسوف هذا الصباح، وفيها يقول:

(عزيزي عصام،

وعدت بأن أحدثك مرة ثانية عن سـمير ونادية حديثاً ساراً، لا نقد فيه ولا تفلسف، فلا تستغرب إذا قلت لك بأنني حبذت الزواج بعدما شاهدت ولمست من انسجامهما وتفاهمهما. لقـد نعما بزمالة حقيقيـة في الجامعة أيام كنا طلاباً فيها، كما تذكر، ولـم يكـن أحد منهما يفكـر في الزواج آنئـذ، ثـم تخرجـا في عـام واحـد وظـلا صديقـين إلى أن جمعتهمـا "مؤسسة المشاريع الكبرى" في مكتـب واحـد فتحابـا، وبعـد أن ركـزا أوضاعهما المالية، أي بعد أن ادخرا ما يكفيهما لتأسيس بيت تزوجا. هكذا افهـم الزواج يـا صديقـي، أن يكـون نتيجـة طبيعيـة لمعرفـة وثيقـة (وليـس ضرورياً أن تدوم سنوات) تبتدىء بالاستلطاف والود وتنتهي بحب عـاقل، لا بجنون، يؤلف بين المرأة والرجل، ويزداد رسوخاً مع الأيـام. أكـاد ألمح ابتسامة موافقة وسرور على شفتيك، فلا تتعجل! لا تحسب، أرجـوك ، أن في وسعي، أو في وسـعك أن نعاشـر فتـاة مسـلمة في بلدنـا، معاشـرة بريئة طبيعية، دون أن تطير الإشـاعات لتؤكـد أن الاثنـين عاشـقان، وقحـان، لا يتورعان عن الظهور بين النـاس بحريـة، وأنهمـا ضربـا بالتقـاليد والأعـراف عرض الحائط! فإذا شئت أن تتعرف إلى فتاة بغية الزواج فعليك أن تخطبهـا رسمياً من أهلها قبل كل شيء، أو أن تعقد القران لتتاح لك فرص التعرف إليها، كما عليك، في كلتا الحالتين، ألا تبطىء بالزواج لكي يطمئـن الأهـل والناس، الناس الفضوليون الذين لا همّ لهم إلا مراقبة الآخريـن في مجتمعنـا،

وهم ما زالوا يؤلفون الكثرة الساحقة. ولو لم يكن كل من سمير وناديا من إخواننا المسيحيين لما أتيحت لهما فرصة الزواج على هذا الأساس المتين بعد أن خبر كل منهما الآخر في شتى الظروف، على طبيعته الحقيقية، لا المصطنعة، في الصحة والمرض، في الغضب والرضا، في العسر واليسر، في حالات الحزن والفرح. ولهذا كله أعلمك بأني سأبقى عزباً، لا نفوراً من الزواج، ولكن خوفاً عليه من الإخفاق.

أما صديقنا نزار فقد رفع عني التهمة بمعارضة الزواج بعد أن بينت له نظريتي هذه، على أثر زيارتنا لسمير، كما أني قرأت له مقاطع من رسالتك الأخيرة التي قلت فيها، في صدد المقارنة بين فتياتنا والغربيات: (.... بناتنا يا سالم يشغلن بالي: أقارن بينهن وبين الغربيات، وحتى اليابانيات وغيرهن في هذه البلاد فأشاهد فوارق كبيرة في التربية والعقلية والسلوك، وأتمنى لفتياتنا جميعاً، الانعتاق من ربق العبوديات، وأعني بها العبودية للرجل، وللناس، ولأنفسهن الضعيفة الوجلة. أتمنى وأتمنى، وأقضي فترات وأنا سارح في المقارنات والتمنيات بدافع حبي لبلادي، ورغبتي المخلصة في أن تنهض حقاً نساؤها وتتحرر، وهي كما نعلم تتحلى بمؤهلات وإمكانات لا تقلّ عن التي تتصف بها سائر نساء العالم، ثم أتنبه فجأة إلى عقم أمنياتي فأتألم. يؤذيني يا سالم أن أصطدم بالواقع، أن تكون أمنياتي ضخمة، ليست قريبة التحقيق، لأن الزمن في بلادنا يسير ببطء، وخمول، إذ أصابته عدوى البطء والخمول منا...).

كما قرأت على نزار مقطعاً ثانياً من رسالتك تقول فيه: (... لقد آمن الغربيون بأن المرأة إنسان سوي كالرجل، لا تابع ولا متبوع، في حين أن إصرارنا نحن الشرقيين، حتى أكثرنا رقياً، على اعتبارها تابعة لنا، هو سبب شقائها وشقائنا بالتالي، وكلنا يعلم ما يلحق بأمهاتنا وأخواتنا وفتياتنا من ظلم في المجتمع العربي، سببه تحكم الرجل بهن، ورأيه الخاطىء أنهن مخلوقات أدنى منه في كل شيء، ولا سيما في القدرة على تحمل المسؤوليات والأعمال. قلت إن الغربيين اعترفوا للمرأة بالمساواة معهم في الحقوق والواجبات، وانطلاقاً من هذا المبدأ العادل أضحوا يعاملونها معاملة الند للند، ويحملونها مسؤولية نفسها وتصرفاتها، ويربون بناتهم على الثقة بالنفس، والشجاعة لمواجهة المشكلات الحياتية بوعي وحرية. ولقد نجحت التجربة، على الرغم من معارضة المتزمتين، من الجنسين، وفرضت المرأة نفسها عضواً مستقلاً نافعاً في المجتمع الجديد، وأيقن الرجال أخيراً بأنك إذا أطلقت للمرأة حريتها ملكتها، وإذا ضيقت عليها الخناق فقدتها لأنها كالزئبق: إذا فتحت راحة يدك ظل مستقراً فيها، وإذا أطبقتها عليه فرّ من بين أصابعك!)

لقد أعجب نزار، مثلي، بتحليلك للموضوع، وقال معلقاً إن الطريق أمامنا طويلة وشاقة قبل الوصول إلى مثل هذا الواقع المتحضر إنسانياً واجتماعياً، وأننا، رجالاً ونساء، مسؤولون عن بلوغه، وما علينا إلا أن نتفهم أبعاده الحقيقية، وننبذ مظاهره السطحية. ومن ثم أخبرني بأنه عزم

على أن يتزوج مدرّسة في دار المعلمات التقى بها بضع مرات في اجتماعات لجنة وضع العلامات لفحص الكفاية، فاسترعت انتباهه بحديثها اللبق ونظرتها الذكية. أرسل من يستطلع أخبارها (وهو التقدمي المحنك، الخبير باصطياد الأخبار) فرجع أعوانه بتقارير ممتازة عن الفتاة لذا تقدم لخطبتها من ذويها بعد أن هيأ لقاءً معها في بيت زميله، أستاذ التاريخ القديم في الجامعة، وفاتحها في الموضوع ووافقت عليه. إني أهنئه على هذه الشجاعة حقاً، وآمل أن تكون ورقته رابحة لأنه، على الرغم من اختلافاتنا المزمنة في الرأي والعقيدة، شاب طيب، عزيز علي، ومستحق لكل خير.

وإذا كنت تحسب يا عصام أننا تقدمنا اجتماعياً في السنوات الأخيرة، أقصد إذا كنت تحسب أن فتياتنا تحررن فكرياً، وأن شبابنا تطوروا أخلاقياً، وشفوا من عقدهم المستعصية فأنت مخطىء، ولا بد لي من أن أشرح لك الأسباب، وأصف لك واقع الحال لأبدّد أوهامك فإن من يسمع عنا يا عصام يفرح، ولكن من يجرب أسلوب حياتنا يحزن... مظاهرنا خداعة لأننا نخدع أنفسنا، وهذا الخداع الذي جرينا عليه لذواتنا وللرأي العام، جعلنا نصدق ما ندعيه، فهو إذن أخطر آفاتنا. الأمثلة على ما أقول كثيرة، على الصعيدين العام والخاص، فعلى الصعيد العام، الرسمي، ما زال قادتنا يقولون إن النكبة الكبرى التي منينا بها في حزيران نكسة، وإننا أقوياء، أشداء بأسلحتنا وجيوشنا، على أتم استعداد لمعركة الثأر، (فلم انقضت إذن تلك الأعوام ولم نحرر أراضينا المحتلة وفلسطين؟) وإن

إسرائيل ما زالت دولة عصابات، ينخر في عظمها السوس، في حين أن العكس هو الأصح، فتراهم يمنعوننا من معرفة أي شيء عنها، بدلاً من أن يسمحوا لنا بالإطلاع على كل ما يُنشر فيها وعنها، كل هذا يا عصام لأننا نخدع أنفسنا، ونجبن من مواجهة الحقيقة، والاعتراف بالخطأ وبالإخفاق.

أما على الصعيد الاجتماعي فأقول لك بصراحة أن تطورنا سطحي قبل كل شيء، نحن ارتضينا من التطور مظاهره، وفرحنا بلباسه الجديد فأحجمنا عن تطوير عقولنا. هذا بوجه عام، وبما أني أنفر من التعميم، وأحب التخصيص، فالأفضل لي أن أصف لك مجتمعنا الجامعي في دمشق حيث ما زالت الفتاة مظلومة، مثل الفتى تماماً يا صديقي، وإذا سألت من الظالم؟ أقول لك إننا نظلم أنفسنا أكثر مما تظلمنا التقاليد والحكومات، والدليل على ما أقول هو أن الروح الجامعية ما زالت مفقودة تماماً، كما كانت في أيامنا نحن. إن ترددي المستمر على الجامعة، إما للقاء نزار، وإما لاصطحاب أختك هدى إلى البيت، يسمح لي بمشاهدة الطلاب، والتحدث إليهم، ومناقشة الأساتذة في هذا الموضوع، فالطالبة عندنا تهرب من زميلها لأنها لا تثق به، ولا ترتاح لنظرته إليها، وذلك لأنه يباهي رفاقه إذا ما حاولت التحدث إليه في موضوع الدراسة أو غيرها فيظن أنه أصبح: "الدون جوان" المختار، فتعزف المسكينة عن مصاحبته إذ تتحقق بأنه يبحث فيها عن الأنثى، لا عن الزميلة، ناسياً أن من تخاطبه فتاة متعلمة، متعطشة إلى رفيق يؤكد لها أنهما متساويان فكرياً (في المرحلة

الجامعية على الأقل) أكثر من تعطشها إلى صاحب أو عشيق. النتيجة: تعود تلك الطالبة إلى قوقعتها بعد أن يكون الفتى قد حرمها وحرم نفسه من ألفة الزمالة، من أحلى صداقة رياضية وفكرية، لأسباب متعددة اجتماعية ونفسية، في طليعتها الجوع الجنسي الذي يعانيه. هذا لا يعني يا عصام أنني أنفي وجود عناصر جدية وراقية بين طلابنا وطالباتنا الجامعيين، استطاعت أن تتغلب على أهوائها، وتجاوزت بعض الرواسب، ولكنها قليلة بالقياس إلى المجموع، ولكي لا أظلم الشباب لا بد لي من ذكر الفتيات اللواتي يهتممن بزينتهن وألبستهن في الجامعة أكثر من اهتمامهن بالمواد التي يدرسنها، والكتب التي يحملنها، لاسترعاء انتباه الزملاء والأساتذة، ولغوايتهم. فإن لتصرف كل من الطرفين اللذين وصفتهما لك أسبابه الكامنة في واقعنا المضطرب، وتربيتنا البيتية الناقصة، وهذا ما يجعلنا نجد هوّة كبيرة تفصل بين الشباب والشابات في الجامعة، تحول دون التقائهم الجميل البنّاء في القاعات أو في المكتبات، أو في المطاعم، وتسدّ الطريق في وجه نموّ الروح الجامعية التي استمتعت أنت بنعمها في الغرب.

إني أنتظر قدومك بفارغ الصبر، وأنتظر منك أن تفعل الكثير في وطننا لأن الأمل، كل الأمل، معقود على أمثالك من شبابنا المزودين بروح عالية، المستعدين للكفاح والتضحية من أجل تطوير الحياة نحو الأفضل، وإصلاح الخلل أينما تجلى. ولا تنس أني سأكون ساعدك الأيمن في مثل هذه الخدمات، بل ساعداً مخفياً عن الأنظار لأنني مصنّف بين فئة المغضوب

عليهم، مثل أبي المغفور لـه، فقـد دلـت محـاولاتي السـابقة للعمـل في لجـان فرعية ضمن اختصاصي، على صحة ما أقول. إني إذن مـن الفئـة المدموغـة بطابع الماضي الوطني في سـورية أيـام الانتـداب، ذلـك المـاضي الـذي قـرر المسؤولون الجدد إدانته برمته، وإدانة رجالاته وأبنائهم وأحفادهم بذنوب لـم يقترفوها، وقرروا شطبه من التاريخ الحديث، وبتره من الحاضر. لقـد نسـوا يا صديقي أن الفرع لا يمكنه أن يعيـش وينمـو بـلا أصلـه، وأن اليـوم وليـد الأمس، والغد وليد اليوم، فالدنيا، مذ كان الوجود، مبنية على قـاعدة ثابتـة الأركان: ماضي وحاضر ومستقبل. ونسوا، أو تناسوا، أن الدول لا تبنـى، والحضـارات لا تشـيد، والانتصـارات لا تتحقـق إلا بالمحبـة والتسـامح والتضـامن، وبالوفـاء والاعـتراف بـالجميل، لا بعكـس هـذه الأخـلاق والمبادىء، وتلك الصفـات الجميلـة. ونسـوا أيضـاً أن الشـمس أقـوى مـن الضباب، وأن القمم وحدها هي التي يغشاها الضباب، فإن ما أقول ينطبـق على الأمم يا عصام، إذ كثيراً ما نرى العظماء فيها عرضة لتطاول الضبـاب الذي يتوهم في ذاته القدرة على حجبها عن العيون إلى الأبد، ولكـن ذراتـه تتطاول عليها حيناً، ثم تنحسر وتتقلص لتبيت في الأودية والوهاد وتـزول، فتظهر القمم مـن جديـد شـامخة راسـخة، تتحـدى السـحب والغبـار! إنـي متذمر أيها الطبيب، ولكنني أتذرع بقول مأثور قاله الفيلسـوف "سـتيوارت ميل" مفاده: (خـير لـك أن تكـون سـقراطاً متذمـراً مـن أن تكـون خنزيراً راضياً...) وكل ما أتمناه هو أن تطمع أنت إلى محاكاة القمـم لأن وطننـا في

حاجة كبرى إليها، وأن تعجل بالعودة لأنك ستكون طبيباً بارعاً، وجراحاً يستأصل العلل المادية والمعنوية، وليحفظك اللّه.

سالم)

إني أفهم ثورة سالم على ما آلت إليه الحال في سورية حيث لم تتحقق لا الحرية ولا الاشتراكية ولا الوحدة الوطنية والعربية، وأقدّر لنزار تفهمه لتذمر سالم، فقد اعترف لي في رسالة عثرت عليها في الملف الخاص اليوم، بينما كنت أرتبه قبل وضعه في إحدى الحقائب، بأن المواطنين في بلدنا انقسموا إلى فئتين فعلاً: الفئة الحاكمة والفئة المحكومة، وقال: (إن ما حدث شيء مؤسف لا نرتضيه نحن التقدميين العقلاء، وإن كونه نتيجة طبيعية لعزلنا عن الحكم في العهود السابقة لا يبرر استمراره. هذا الواقع يا عصام يؤلم سالماً والعديدين مثله، كما أنه ظاهرة خطرة، ذات نتائج سيئة، فإذا لم يكن الشعب ملتفاً حول حكامه، ومؤيداً لهم، وراضياً عن سياستهم، يتعذر عليهم النجاح في الحكم وتحقيق انتصارات خارجية. غير أن ما تهدّم في سبع سنوات، يا صديقي، لا يمكن أن يعاد بناؤه على أسس متينة في سبعة أشهر أو في بضع سنين، هذا ما أكرره لسالم دائماً، وآمل كثيراً في أن نعيد البناء كما ينبغي، هو وأنت وأنا وكل مواطن مخلص وواع).

قضيت أربع ساعات اليوم مع رسائل رفاقي، ولهذا أراني مشدوداً إلى وطني وإليهم أكثر من السابق، ربما يكون فراغي من العمل المتواصل والدراسة السبب في انشغالي بهم. أما الآن فقد آن لي أن أعدّ

حقيبة السفر قبل التوجه إلى شقة هيللا لاصطحابها إلى العشاء، فإن الطائرة التي ستحملنا غداً، الجمعة، إلى مدينة "برنستون" ستقلع في التاسعة صباحاً. لقد رحب صديقي رئيف وزوجته الأميركية "باربرا" كثيراً بزيارتنا لهما عندما خابرتهما في الأسبوع الماضي، وسوف يكونان في انتظارنا لدى وصولنا إلى المطار. أما منى ابنة عمتي فقد كلمتها يوم أمس واتفقنا أن نقضي معاً أربعة أيام في مدينة نيويورك، قبيل عيد الفصح، وهكذا سأتمكن من قضاء العطلة في كليفلاند بالقرب من هيللا التي أجّلت رحلتها إلى السويد إلى ما بعد رحيلي.

شعر سالم يوم تلقى رسالة عصام الأخيرة بدفقة دم دافئة تسري في عروقه، سرته، وجعلته يزداد تقديراً له، ولصداقته المخلصة. سقى اللّه أيام الطفولة، التي قضياها جنباً إلى جنب في مدرسة التجهيز حيث كانا يتشاجران مشاجرات صبيانية بريئة، سرعان ما تنتهي بالمصالحة إذا ما تدخل بينهما أحد الرفاق شامتاً، أو متحاملاً... وحين انتقل سالم إلى مدرسة اللاييك القديمة في مرحلة الدراسة الثانوية افتقده عصام كثيراً، وكان قد تعرف بنزار، وصادقه، غير أن عقد الصداقة بينه وبين سالم لم ينفرط، بل تقوّى بانضمام سمير، الذي تعرف إليه سالم في مدرسته الجديدة، وظل الرفاق الأربعة المجتهدون متحدين ، إلى أن جمعتهم الجامعة في كليات مختلفة.

حدّد سالم موعداً مع نزار في اليوم ذاته، وجلس في مقهى البرازيل ينتظر قدومه مشتاقاً إلى لقياه، وكانت نسمات شهر نيسان المعطرة الدافئة قد فعلت فعلها في إذكاء حنينه إلى عصام وذكريات الطفولة الحلوة، وفي عودة الأمل إلى قلبه. وصل نزار متأخراً إلى المقهى وقال لسالم الذي استقبله دون تأنيب على تأخره:

ـ لو لم يكن لديك أمر مهم نتحدث فيه لما أصررت على أن نلتقي هذا المساء، فهات ما عندك أيها الفيلسوف!

فأجابه سالم مبتسماً:

ـ الفيلسوف هذه المرة هو عصام، لا أنا... لنطلب القهوة أولاً ثم لنستمع إليه، فالموضوع الذي أثاره في رسالته هذه يهمك بقدر ما يهمني، ومعذرة من الخطيبة إذا كنت سأؤخرك عن لقائها نصف ساعة...

كانا جالسين في ركن منزوٍ في المقهى، وبينما كانا يشربان القهوة فتح سالم الرسالة، وقرأ على صديقه ما يلي:

(عزيزي سالم،

أرى أن اقتراب عودتي فتح قريحتك وحماستك لتزويدي بتقارير وافية عن حال بلدنا ومجتمعنا وأصدقائنا، ولا أخفي عنك أني أجد في قراءتها مجالاً واسعاً للأخذ والرد. لقد بتّ أعيش معكم في هذه الأيام القليلة التي تبقت لي في الولايات المتحدة أكثر مما أعيش حيث أنا... كل يوم ينقضي يفصلني عن هذه الأرض ويقصيني عنها، حتى لكأني موجود فيها وجوداً سطحياً، بل قل جزئياً، شعر به أصدقائي هنا، لا سيما هيللا،

ولكنهم حاولوا تفهمه، وأخذوا يعـذرون شرودي، وحضـوري "الغـائب" بينهم أحياناً...

أود قبل كل شيء أن أهنيء نزاراً بعزمه على الـزواج، وأرجـو أن تقرأ عليه هذه الرسالة لأنها موجهة إليكما، ولا شك في أن نزاراً يغفـر لـي تقصيري في الكتابة إليه لضيق الوقـت في هـذه الآونـة. أمـا تمردك أنـت يـا سالم على الزواج فإنه خطأ فادح، لا أجـد أسـبابه مقنعـة، ولا أرتضـي أن تبقى مصراً على ارتكابه وذلك لأسباب أكثر إقناعاً، سأشرح لـك بعضهـا في هذه الرسالة.

لقد شاهدت فيلماً سينمائياً ذاعت شهرته في هذه البـلاد وشـهرة مؤلف روايته قبل عامين، عنوانه: "قصة حب" "LOVE STORY" ، ولا بـد أن تكونوا قد سمعتم بـه أو شـاهدتموه أو قرأتـم الروايـة لأنهـا تسـتحق مـا نالت من الشهرة. قرأتها بعد أن شـاهدت الفيلـم، وأنـا قلمـا اقـرأ روايـات كما تعلم، فأعجبت بأسلوبها البسيط، وصراحتها، ومراميها، ووجدت أن حـوار الشـريط السـينمائي أتـى موافقـاً لنصهـا ذلـك لأن مؤلفهـا الأسـتاذ "أيريك سيغال" "ERIK SEGAL" قد وضع السيناريو بنفسه. كان المؤلف في السـابعة والثلاثـين مـن العمـر يـوم نشـر "قصـة حـب" وهـو أسـتاذ الأدب الكلاسيكي في جامعـة "يـال" "YALE" ومـن خريجي جامعـة "هارفـارد" "HARVARD" . وتبين لي بعد ما شاهدت وقرأت أن لإقبال النـاس عليهـا في الولايات المتحدة وفي مختلف الأقطـار حيث تُرجمت وعُرضت، أبعـاداً

ومعاني أدركتها مؤخراً نسبة إلى الحياة الحاضرة في أميركا. لقد عثر الأميركيون، في "قصة حب" على ما أضاعوه منذ ربع قرن أو أكثر، الحبّ الصحيح، والعاطفة الصادقة، ووجدوا فيها صرخة حق وخير نابعة من وجدان الجيل الجديد في وجه الإباحية والمادية والاستغلال. عبّرت هذه الرواية عن أماني خمسة ملايين من الناس قرأوها على الأقل، وأضعاف أضعافهم شاهدوها على الشاشة وتأثروا بها، وعبرت كذلك عن تشوقهم للرجوع إلى الروابط الإنسانية النبيلة، إلى الحب الصحيح، الرائع في بساطته وعمقه الذي افتقدوه في نهج حياتهم الجديدة. لقد توهموا أنَّ العبث بالقيم، والرفض لتقاليد بناء الأسرة، والكفر بالروح والدين مما يسعدهم ويحررهم، ولكنهم تردّوا في مهاوي القلق والضياع، وضلوا الطريق في نهج حياتهم المتمردة على الصلات العائلية جميعاً، وسئم شبابهم تلك الحرية المزيفة التي حسبوها آية السعادة!! سأعطيكما، يا صديقي، فكرة عن تلك القصة: تعرّف الطالب الجامعي "أوليفر باريت الثالث" "OLIVER BARRETT III" ، ابن المليونير باريت الثاني، وهو رجل اقتصاد نافذ في الولايات المتحدة، إلى طالبة جامعية فقيرة، من أصل إيطالي، تُدعى "جينيفر كافيلييري" "JENNIVER CAVALLIERI" وكان عمره واحداً وعشرين سنة، في مثل عمرها تقريباً، فتحابا منذ أول لقاء. ثم كلّلا هذا الحب الجميل البسيط بالزواج، متحديين معارضة أسرة باريت العنيفة والتقاليد الدينية للزواج المتعارف عليها، إذ اختارا بتفسيهما نصاً شعرياً رائعاً لجبران خليل جبران من كتابه: "النبي" قرآه ساعة إعلان الزواج.

وقد وصف لنا الكاتب الهوة الكبيرة التي تفصل بين أوليفر الشاب وأبيه، أي تصادم عقليتين متنافرتين وصفاً دقيقاً: عقلية الرأسمالي المتحجر، الحريص على الأمجاد المالية المكتسبة، والمظاهر الاجتماعية البراقة الناجمة عنها، وعقلية الشاب الإنسان، المؤمن بالمساواة، المبغض للاستثمار والتواكل والنفاق الاجتماعي، المخلص لنفسه، المحب للآخرين، التواق إلى حياة نظيفة، بسيطة مع فتاة وجد فيها ما يحقق له تلك الحياة الجديدة. وأرى أن هذه القصة الانسانية حملت في فصولها رسالة إنسانية عظيمة: حملت الدعوة إلى الحب الصحيح الذي يزيل بين الناس جميع الفوارق، وإلى البيت النظيف مادياً ومعنوياً، ودفء جدرانه، وإلى جمال الحياة الزوجية وآمالها بإنجاب الأطفال لتكوين أسرة حنون، مبنية على الحب والإخلاص. إن عطش الأميركيين للقيم الروحية التي افتقدوها، كما ذكرت آنفاً، والمودة الخالصة التي أنكروها في صلاتهم كلها، وتلهفهم على استعادة ما أضاعوه، والعودة إلى التوازن بين عقلهم وعاطفتهم في الحياة، كان السبب في إعجابهم بـ "قصة حب" وبمؤلفها "أيريك سيغال" وبممثليها الناجحين، وبموسيقى شريطها السينمائي. لقد انتهت القصة بفاجعة مروعة، بموت جنيفر بالسرطان الذي أذبلها في شهور قليلة، وأطاح بأماني العش الجميل، وكأن اختطاف الموت لتلك الصبية، وهي وزوجها في أوج سعادتهما، رمز إلى استحالة السعادة والكمال في حياة الإنسان، ولكنه رمز أيضاً إلى ضرورة السعي للوصول إلى السعادة، والدنوّ من الكمال... ولا أخفي

عنكما أني خرجت من قاعة السينما متفطر القلب، وأن القصة استدرّت من عيوني الدموع، كما فعلت بسائر المشاهدين والقراء.

والآن ، وبعد أن بينت ما آلت إليه الأمور في هذه البلاد التي عبدت المال فاستعبدها، فإني أزداد حنيناً إلى الشرق، وأرى، على بعد الدار، محاسن بلادي، وفي طليعتها الروابط العائلية والاجتماعية الطيبة، والقيم الروحية التي ما زالت قوية فيه، تضفي على حياة سكانه نعماً لا يقدرها إلا الذين حرموا منها. فإياكم أيها الأصدقاء أن تتذمروا إذ لا يوجد أجمل من المحبة، والتضحية في سبيل الذين نحبهم، فلا شيء يولّد السعادة أكثر من العطاء، كما أنه لا يوجد أقبح من الأثرة، والمادية، والتخلي عن الذين يلوذون بنا، وهل تولّد الأثرة والمادية غير الشقاء؟ إن للمال شروراً رهيبة، وقدرة على التخريب عجيبة، إنه شبيه بالنار، فلكل منهما قدرة خارقة على تذويب أقوى العناصر، وكما أن النار تذيب أمتن المعادن وتصهرها، وتستطيع القضاء على الأخضر واليابس في لحظات، فإن المال قادر على إفساد كل طيب وجميل بين البشر، وعلى إبادة أصدق العواطف الإنسانية وأسماها بين الآباء والأبناء، بين الأقرباء والأصدقاء.

أرجو يا سالم أن تطمئن أمي وعمتي إلى أحوال منى، أن دراستها تسير قدماً بنجاح، وصحتها جيدة، فقد خابرتني منذ يومين واتفقنا على قضاء بضعة أيام معاً في مدينة نيويورك، لوجودها في نقطة متوسطة بين كليفلاند وبنسيلفانيا، ولكي نتعرف إليها، ولو سطحياً، قبل أن نغادر هذه البلاد.

كتبت لي أختي هدى رسالة شغلت بالي، أبلغتني أن بشاراً يرفض العودة إلى الدراسة، بعد انتهاء خدمته العسكرية، وأنه ميال، في زعمه، إلى العمل التجاري أو الصناعي، لذا سافر إلى لبنان قبل أسبوعين بصحبة رفيق نعرفه، ومن غير أن يعلم أحداً، ولكنه أرسل يطلب مبلغاً من المال ويقول إنه يعمل في مصنع للمطاط، وينتظر نهاية الشهر لتقاضي مرتبه... وصلت إلي رسالة من نبيل أيضاً، ولكنه لم يعلمني بشيء من هذا خشية إزعاجي، بلا ريب، فاتصل به في الحال، ودعه يخبرني بما جرى، وقل له أني لا أمانع في أن يزاول بشار حياته العملية بما يتفق وموهبته، فإن كبرياءه تمنعه من العودة إلى صفوف طلاب البكالوريا، كما أن ميله للرياضيات ضعيف، فالأفضل أن يتدرب على عمل مهني، سواء كان التجارة أو الصناعة. إني أحبذ له التدريب في ورشة للكهرباء، أو في مصنع صغير لأنه موهوب في معالجة الآلات الكهربائية، منذ حداثته، وقد ظهر ولعه، كما تعلم، بفك أجهزة الراديو، والمسجل، والمكواة الخ... وأكّد لنبيل والوالدة أنـي أحبذ التوجيه المهني لشبابنا، فالخبرة الصناعية والميكانيكية، إذا اكتملت، تدرّ على صاحبها في بلادنا، وفي كل مكان، أرباحاً كبيرة، وتسد فراغاً في مجتمع المستقبل. ثم ذكّر نبيل والوالدة بما كنا نقوله مع الرفاق عن مساوىء تضخم عدد حاملي الشهادات الجامعية، فنحن لم نخطط برنامجاً في هذا الموضوع للاستفادة من اختصاصهم، مما أخذ يعرّضهم، ويعرض الدولة، لمشكلات كثيرة، في طليعتها تعذر

توظيفهم جميعاً، وإضاعة فرص الاستفادة من الموهوبين منهم في دراسة حرف عملية تتناسب مع ميولهم.

وصلني من سمير جواب لطيف على تهنئتي بزواجه وأيقنت تماماً بأن موهبة الشعر عنده تبخرت بعد الزواج... أعطاني صورة واضحة عن حياته الجديدة وعن أثر العيش الهنيء مع رفيقة ذكية مثل ناديا، الذي يهيب به أن يعمل بنشاط، وأن يضاعف الجهد فيما يقدم من مشاريع هندسية للفوز بالمزيد من تقديرها. يقول سمير إن للنساء قدرة على العمل والتركيز تفوق قدرتنا نحن الرجال، وإن ناديا لا تغادر المنزل صباحاً قبل أن تعد طعام الإفطار وترتب غرفة النوم، ثم تنصرف بعد ذلك إلى عملها في المؤسسة لتعود إلى البيت بنشاط جديد يمكّنها من الاهتمام به وبنفسها. وعوضاً عن أن يرسل لي قصيدة جديدة، ملهمة من سعادته الحاضرة، اكتفى بالوصف نثراً، وقال في ختام رسالته:

"... أرى أني لم أتحدث في رسالتي هذه إلا عن نفسي وعن ناديا، وكأننا أضحينا محور العالم، فمعذرة يا عصام لأن كلمتي "أنا" و"نحن"، مكروهتان حقاً. ننتظرك هنا بشوق كبير، ولكم نتمنى أن يحذو حذوك بالرجوع إلى الوطن أكبر عدد من شبابنا الأطباء والمهندسين، لأن مشاريعنا الصحية والهندسية والفنية تتطلب العديد من ذوي الخبرة والاختصاص، ويا حبذا لو كان المسؤولون يغرونهم بالعودة، وبشروط العمل في الوطن، وبتخفيف مدة خدمة العلم، إذ أنهم ليسوا جميعاً

مستعدين للتضحية مثلـك، فمثلـك قليـل يـا عصـام. أو لا يحز بـالنفس أن يهاجر أخواننـا إلى سـائر بـلاد العـالم، وأن يخدموهـا، بعـد التخصـص، في مختلف فروع العلم، فنخسرهم نحن وأسرهم، ونتعـاقد، في الوقـت الحـاضر مع خبراء أجانب، نغدق عليهم مرتبـات ضخمـة، وشـروط حيـاة مرفهـة. آمل أن نعمد إلى رسم سياسة حكيمة لترغيب شبابنا بالعودة فنقضي على المآسي التي نعانيها، وتعانيها أسر كثيرة، بسبب غيابهم.

أعرف يا عصام عائلة متواضعة أرسلت ولديها الاثنين للتخصص، الأول إلى المانيا الغربية، والثاني إلى فرنسا بعد أن حصل على منحة لدراسـة الفيزياء، فتخرّج الأول مهندساً في المناجم، ونال الثاني شـهادتين جـامعيتين بتفوق، وتعاقدا على العمل بشروط مغريـة، فاستقرا في البـلاد التـي درسـا فيها. المهم في الأمر أن أباهما توفي في غيابهما، وأن الأم لا تملك صحة ولا مـالاً يمكنانهـا مـن زيـارة ولديهـا، وأنهـا تعيـش متألمـة مـع ابنة لهـا تعمـل سـكرتيرة في إحـدى الشـركات. إن منظـر هـذه الأم، وحنينهـــا لرجليهـــا الشابين اللذين حُرمت منهمـا إلى الأبـد، بعـد أن عوّلـت علـى الاسـتمتاع بقربهما وبنجاحهما الآمال كلها، إن منظرهـا يـا صديقـي، وقناعتهـا بأنهمـا على حق بالبقاء في الغرب حيث التقدير والتكريم، مما يطرح ألـف سؤال، ويدعوإلى التأمل. هذه الأم تؤثر مصلحة أبنائها علـى مصلحتهـا، شـأنها في ذلك شأن جميع الأمهات، وتكتفي بما يحوّلان لهـا مـن مـال في نهايـة كـل شهر، ولكن هذا لا يمنع من أنها تعيش مأساة حقيقية، وتتحسر، وتتحرق،

في النهار والليل، على اختطاف ابنيها منها، مـن قبـل الغـرب. ولكـن، مـن المسؤول الحقيقي عن اختطافهما منها ومن الوطن يا ترى؟ ولماذا يتهربـان من الرجوع وينفران منه؟ أنت تعلم مثلنا يا عصام أن في كل مدينة ســورية وكل بلدة وقرية أمثال هذه الأسرة الممزقة، وتلك الأم المنكوبة، فهـل يـأتي مسؤول شجاع وعادل يتولى بنفسه دراسة هـذه المعضلـة الكـبرى، ويضـع لها حلاً يرضي ضميره الوطني، والإنساني؟ ولكن السنين تمضي، والشعور القومي عند شبابنا المغترب قد يتضاءل، وما يمكـن حلّه بسـهولة اليـوم قـد يستعصي حله في المسـتقبل. إن بلادنـا تفتقـر إلى العنـاصر الجريئـة الخاصـة، ولقد قرأت قصيدة لشاعرنا الكبير عمر أبو ريشة عنوانها: "صلاة" عبَّر فيها عما أعنيه حين أنشد يقول:

(ربّ ! طوّقـــت مغانينـــــا جمـــالاً وجـــــلالا
ونـــثرت الخـــير فيهـــن يمينـــاً وشـــمالا
وتجلّيـــــت عليهـــــن صليبـــــاً وهـــــلالا
ربّ! هـــذي جنـــة الدنيـــا عبـــيراً وظـــلالا
كيـف نمشـي في رباهـا الخضـر تيهـاً واختيـالا
وجـــراح الـــذلّ نخفيهـــا عـــن العـــزّ احتيـــالا؟
رُدّهـــا قفـــراء، إن شـــئت، وموّجهـــا رمـــالا
نحن نهـــواها، على الجـدب، إذا أعطت رجـــالا!"

عزيزي سالم: هذا المقطع الأخير من رسالة سمير أحببت أن أنقله إليك لتشاركني أنت ونزار الإعجاب بما ورد فيه، ولتكلّف نزار بتبني قضية هجرة الأدمغة من بلدنا لأنه قادر وحده على طرحها للبحث مع رفاقه المسؤولين، وعلى نشر مقالة عنها في صحيفتهم، وأحسب أنه لن يتوانى عن تقديم هذه الخدمة الكبيرة. كما أرجو أن تقوم بالمهمة التي كلفتك إياها مع الأسرة بسرعة، وأن تذهب إلى بيروت لمقابلة بشار، إن أمكن، ولا تتأخر بالجواب، ولك ولنزار وسائر الأصدقاء خالص تحياتي وأشواقي.

عصام)

خرج الصديقان، سالم الحصاد ونزار عفيفي من مقهى البرازيل وهما يعلقان على رسالة عصام فنظر نزار إلى ساعته وقال:

ـ لست آسفاً على تأخري عن موعد لقاء الخطيبة لأني سررت حقاً بأخبار عصام فأعلمه أني قبلت اقتراحه، وإني سأبذل جهدي لتحقيق طلبه، طابت ليلتك وإلى اللقاء.

فصافحه سالم وأجاب:

ـ أتمنى لك النجاح في مسعاك، ولا أحسب أنك في حاجة إلى التنبيه لكي تعوّض على الخطيبة ما فات من وقت اللقاء...

فضحك نزار وانصرف، بينما توجّه سالم إلى بيت "الدارمي" ليعالج معهم قضية بشار.

الاثنين في ١٩٧٣/٤/٢

كانت رحلتي مع هيللا إلى "برنستون" منذ أن ركبنا الطائرة صباح الجمعة، حتى اللحظة التي عدنا فيها إلى كليفلاند مساء الأحد، أجمل رحلة قمت بها حتى الآن. عشنا أياماً ثلاثة في جوٍّ مرح ممتع زادت في إسعاده ضيافة صديقينا فيها رئيف وباربرا، وجودة الطقس، والزيارات واللقاءات الموفقة التي حظينا بها. عاد إلى قلبي الاطمئنان لأن هيللا استعادت هدوءها وواقعيتها بعد نزهة الأحد الماضي، فقد كنت طوال الأسبوع مشغولاً بأعمالي الخاصة، كما ذكرت، وكانت هي منصرفة إلى مسؤولياتها في المستشفى ليل نهار، لذا لم ألقها إلا لماماً، ومنذ أن وقع نظري عليها في صباح الجمعة أمام باب العمارة التي تسكنها، تبينت أنها وضعت رجليها على الأرض من جديد وعادت تلك المرأة السويدية الناضجة، الواقعية، التي عزمت على الاستفادة من الإجازة، وجعلها هانئة.

أما صديقي رئيف فليس طبيباً ولا أستاذاً، إنه مغترب لبناني تعرفت به بعد وصولي إلى كليفلاند بأشهر قليلة، خلال حفلة أقامها زوج خالته السيد "جون شمالي" (حنا شمالي)، عميد الجالية العربية في الولاية، ودعاني إليها مع الطلاب العرب وهم ثلاثة لبنانيين، وسودانيان وطالب

عراقي، وأنا. كنا حوالي خمسين شخصاً، وكنت السوري الوحيد بينهم، فاقترب مني رئيف وأحاطني بعناية خاصة، ومن ثم عرفني بخالته السيدة ليزا شمالي، وحدثني عن دراسته وعمله وعائلته فارتحت إليه وعلمت منه أشياء مفيدة عن جامعتي، والمدينة التي نسكنها. ومن ذلك اليوم أضحى صديقاً لي، بل أخاً كبيراً يسأل عني باهتمام، ويدعوني من وقت لآخر، ويوصي بي أهله وأصدقاءه أيام كان يسافر. إنه خريج الجامعة الأميركية ببيروت، أتى إلى كليفلاند لزيارة خالته وزوجها بعد أن حصل على شهادة في السياسة والاقتصاد في سنة ١٩٦٦، فأعجب بالولايات المتحدة، وأغرته الأعمال إلى درجة جعلته يقرر الإقامة فيها والعمل عاماً أو عامين، كما قال لي، وإذ بالأعوام تنقضي، وبالأعمال تسير بنجاح، وبالقلب يتعلّق...
كانت لهيللا صديقة أميركية، ممرضة مثلها، رائعة الحسن، ومن أسرة تملك في كليفلاند اسهماً كثيرة في شركة للضمان، لها فروع في عدة ولايات، فتعرف رئيف بابنة مدير تلك الشركة "باربرا ووكر" وأحبها، ثم تزوجها وأصبح الممثل التجاري للشركة. لم تحضر هيللا حفلة زواجهما إذ كانت في السويد يومئذ، ولما رجعت إلى كليفلاند، بعد غيابها الطويل عنا، أصبح رئيف وزوجته من الأصدقاء القلائل الذين عاشرناهم دون انقطاع، إلى أن تسلّم إدارة المكتب الذي افتتحته شركة الضمان في مدينة برنستون وانتقلا للسكن فيها، وكان ذلك قبل عام بالضبط.

عانقناهما في مطار برنستون وتوجهنا معهما إلى بيتهما حيث أصرا على أن نقضي إجازتنا فيه لأنهما لبنانيان، على حد تعبير باربرا، ولا

يقبلان أبداً أن نقيم في الفندق، فتقاليد الضيافة العربية لا تسمح بذلك... ولقد دهشت ساعة تحلقنا حول مائدة الغداء ورأيت أنواعاً من الأطعمة اللبنانية اللذيذة التي تثير الشهية، وكلها من صنع باربرا! إنها من الأمير كيات النادرات اللواتي امتزجن بعادات الشرق، وأحببن لغته وربوعه وتقاليده، ويبدو أنها تعلمت صنع الأطباق التي يحبها رئيف من والدته إبان أشهر الصيف الماضي التي قضتها معه في لبنان. لقد تعلمت بعض الكلمات العربية، ولا سيما عبارات التغزل والتحبب، فهي لا تخاطب رئيف إلا قائلة: "هبيبي رئيف، أنت سُكّر!" وبعد الغداء تعاونا نحن الأربعة على تنظيف المائدة والأواني والمطبخ، ثم شربنا القهوة العربية وقمنا بجولة في المدينة الزاهية، ختمناها بالطواف على حي مخصص لسكنى أساتذة جامعة برنستون. إنه حي رائع في تخطيطه، وطراز بنائه، ينقل الإنسان من دنيا الواقع إلى عالم الأحلام لجمال دوره وحدائقه، وشوارعه، وأشجارها الباسقة. فالشوارع متوازية، قصيرة، مغروسة على الجانبين بنوع من الشجر، لا أعرف اسمه، وهو في هذا الشهر من السنة مشتعل بزهر أحمر قان، بل بباقات منه، رائحتها عطرة، وكثافتها تغطي الأوراق الصغيرة النامية على الأغصان.

دلّني رئيف على مسكن المؤرخ اللبناني الكبير الدكتور فيليب حتي، ثم قادنا إلى الجامعة لنزور أقسامها وقال:

ـ هيأت لك يا عصام زيارة لمختلف كليات الجامعة، حسب طلبك،

وسوف يرافقنا فيها الأستاذ "باتريك ويست" "PATRIK WEST" أمين المكتبة، وهو صديقنا، ورئيس باربرا في عملها.

نسيت أن أقول أن باربرا تركت عملها في التمريض بعد زواجها لاضطرارها إلى مصاحبة رئيف في رحلاته المتواصلة، ولكنها توظفت في مكتبة الجامعة ببرنستون بعد أن استقرت فيها، وهي تداوم خمسة أيام في الأسبوع، مرات في الصباح، ومرات بعد الظهر. وصلنا إلى جامعة برنستون وتعرفنا بالأستاذ "وست" الذي استقبلنا بحفاوة بالغة ورافقنا إلى زيارة المكتبة وقال:

ـ إن لدينا مخطوطات عربية هامة في المكتبة التاريخية، والمكتبة العلمية، يا دكتور دارمي، كما أن بعض طلاب كلية الآداب عندنا يدرسون اللغة العربية.

فسألته:

ـ وهل تسمحون للباحثين بتصوير هذه المخطوطات لتحقيقها ونشرها؟

ـ كيف لا نسمح؟ بل إننا نتعاون معهم في نشرها إذا كانت ذات فائدة علمية وإنسانية.

وحدثنا عن شخصية الدكتور حتي ومؤلفاته القيمة في تاريخ العرب، فعاتبتني هيللا قائلة:

ـ وكيف لم تخبرني حتى اليوم بوجود هذه الكتب بالانكليزية؟

فوعدها رئيف بإهدائها نسخة في الغد، وخجلت من نفسي لأنني لم أفكر بالبحث عن هذا الكتاب لتقديمه إليها قبل الآن. استغرقت

جولتنا في الجامعة ساعتين استمعنا خلالها إلى شرح مدير المكتبة، وهو أستاذ سابق في التاريخ القديم، وتبادلنا أطراف الحديث حول ما كنا نشاهد ونسمع. وعندما وقع نظري على صورة كبيرة لإمام أطباء العرب القدامى: "الرازي"، مرسومة بالألوان على نافذة زجاجية مستطيلة، واقعة في منتصف بيت السلم الذي يفصل بين طابقين، وقرأت اسم "الرازي" بالأحرف العربية، والأحرف اللاتينية قلت لأصحابي:

ـ إن هذه اللوحة من صنع فنان عظيم، خبر شخصية الرازي وعبقريته، فأنا أتخيله كما يبدو فيها تماماً: نظرات ذكية، رحيمة، ووقار، ونحول في الجسم، وعراقة في خطوط اليدين.

فسألت باربرا:

ـ وماذا ألّف، ومن هو؟

ـ إنه طبيب وكيماوي مشهور عاش في نهاية القرن التاسع وبداية العاشر في العراق، والأستاذ "وست" يعلم، بلا شك، أن الرازي هو مؤلف أكبر موسوعة في الطب، عنوانها "الحاوي"، وإنها جمعت خلاصة ما توصل إليه هذا العلم عند العرب والإغريق، والهنود والأقباط، وتُرجمت إلى اللاتينية في أواخر القرن الثالث عشر.

فأجاب الأستاذ "وست":

ـ هذا صحيح، ولكنه توفي قبل أن يتم موسوعته العظيمة فأكملها تلاميذه، بعد موته، لأنها عمل يستحيل أن يضطلع به الأفراد، حتى ولو كانوا

عباقرة. كما أن لابن سينا، الذي نسميه نحن: "أمير الأطباء: موسوعة أخرى في الطب والعلوم عنوانها: "القانون".

سهرنا ليلة السبت في البيت فعرض علينا مضيفانا صوراً ملونة التقطاها في رحلاتهما، بل لوحات بارعة، طبيعية وإنسانية، تستحق أن تنشر في أرقى المجلات الفنية. كان أجمل ما سمعناه منهما، بعد أن أطرينا المجموعة التي خصصاها للغروب، ومجموعة لوجوه الأطفال، مشادة لطيفة ساعة أخذ كل منهما يعزو فكرة المجموعة إلى الآخر، ويطنب في الحديث عن ذوقه وتفوقه في التصوير. إنهما زوجان سعيدان، يحبان الأطفال ولكنهما لم يرزقا طفلاً. أما في مساء السبت فقد دعوناهما إلى العشاء والرقص في مطعم أنيق، يغني فيه مطرب زنجي معروف. شربنا ورقصنا حتى الواحدة صباحاً، والتقينا بأصدقاء لهما انضموا إلينا بعد منتصف الليل، فتحدثنا إليهم ومازحناهم وضحكنا كالأطفال، وكأننا نعرفهم منذ أمد بعيد. حقاً إن الأميركيين بسطاء وطبيعيون، يألفون الغريب بسرعة، على عكس الانكليز، ولا يتورعون عن الظهور أمامه على سجيتهم، فلا عُقد أرستقراطية عندهم، ولا نفسية، وبخاصة في المدن الصغيرة والأرياف.

دعوت صديقينا إلى الغداء في مطعم مختص بالأسماك يوم الأحد، فسألتني هيللا بعد أن جلسنا نتناول مرطباً:

ـ أنت وعدت يا "ايسام" ولم تف... نسيت أن تحدثنا عن الطبيب العربي الذي رأينا صورته في جامعة برنستون، فما اسمه؟ زاري؟...

فأجبتها ضاحكاً:

ـ رازي يا حبيبتي، الرازي، ولكن ما لنا وللطب ونحن هنا في إجازة؟

فقالت باربرا:

ـ أرجوك يا عصام أن تحدثنا عنه وعن أمثاله من أجدادك، فأنا متشوقة لمعرفة المزيد عنهم وعن حضارتهم. ثم أن ما تعرفه عن هذا الموضوع قد لا يعرفه رئيف...

فابتسم رئيف وقال:

ـ طبعاً لا وأنت تريدين جمع أكبر قسط من المعلومات لكي تبهري أهلي في لبنان، وأصدقاءنا هنا بها، كما تفعلين دائماً... هيا، أحضري ورقة وقلماً...

فضحكنا، ولا أدري لماذا راق لي أن أؤجل الحديث إلى ما بعد الغداء، ولكن هيللا وباربرا أصرّتا عليّ أن أتحدث قبله، فقالت هيللا متخابثة:

ـ الأفضل أن تحدثنا الآن كيلا تثقل معلوماتك على المعدة بعد الغداء فنُصاب بعسر الهضم، ولا سيما أننا سنسافر في الخامسة...

ـ لك ما تريدين يا غالية... أنت تعلمين أن الأمم القديمة اهتمت بالطب، وأن الأوروبيين شرعوا بتدريسه في القرن الحادي عشر، بعد أن أخذوا عن الإغريق والعرب هذا العلم عن طريق التراجم إلى لغاتهم.

فقالت هيللا:

ـ هذا ما كنت أجهله تماماً، يا للغرابة!

فأضفت قائلاً:

ـ والأغرب منه أن الإسـلام قضـى على الكهانـة ، وأبطـل المداواة بالسـحر والشعوذة التي كانت شائعة قبـل ظهـوره، ولكـن لا بـدّ مـن الإشـارة إلى أن العرب مارسوا التطبيب على طريقة البـداوة، قبـل الإسـلام، وذلـك في مـزج الطب والكهانة، وعلاج الأمراض بالوسائل البدائية، ومنها الكيّ، حتى كـان لكل قبيلة عرّافها، أي الرجل العالم الذي يداوي العلل، ويحل المشكلات.

فقال رئيف:

ـ ولكـن المصريـين القدامـى، والإغريـق، والـروم، والفـرس سبقوا العـرب والمسلمين في الطب، وكان رجال الدين عندهم أكثر النـاس اهتمامـاً بهـذا العلم.

ـ أنا لا أنفي هـذا يـا رئيـف، بـل أود أن أقـول إن العلـوم الإنسـانية دارت دورات متلاحقـة لـدى الأمـم القديمـة المتحضـرة، وانتقلـت مـن مكـان إلى مكان، من قومٍ إلى قوم حاملةً معها مـا أضافـه إليهـا عبـاقرتهم. فـالإغريق مثلاً أعادوا ما أخذوه عن الأطبـاء الفراعنـة، بعـد أن زادوا عليـه خـبراتهـم واكتشافاتهم، إلى الكلدانين والسريان عن طريـق مدرسـة الاسـكندرية في عصر الدولة الرومانية الشرقية، ثم استعان الفـرس بهـؤلاء العلمـاء وأنشـأوا مدرسة طبية في "نيسابور" ومستشفى تابعاً لها.

فعلقت هيللا التي كانت تصغي باهتمام شديد:

ـ وعـن طريق الفـرس أخذتـم أنتـم العـرب هـذا الطـب، بعـد الفتوحـات الإسلامية، أليس كذلك يا عصام؟

ـ بـل وقبلهـا، لأن الأمـم المجـاورة لبـلاد الفـرس استفادت مـن نهضتهـا العلمية، فهنالك طبيب عربي مشهور يدعى "الحـارث بـن كلـدة" تعلـم في مدرسة نيسابور ونبغ، ثم أدرك الإسلام ولم يُسلم، ومع ذلك كان الطبيب المعتمد عند المسلمين. ومن أطرف ما روي عنه أن الخليفة الأمـوي العظيـم معاوية سأله يوماً، وكان لا يثق إلا به: (ما الطب يا حارث؟) وكـان يعنـي ما هو رأس الدواء، فأجابه: (الجوع يا معاويـة)، ولـه وصيـة معروفـة يقـول فيها: (من سـرّه البقـاء، فليبـاكر الغـداء، وليخفـف الـرداء، وليقـلّ غشـيان النساء).

فطابت لرفاقي تلك النصيحـة الحكيمـة، وراحـوا يعلقـون عليهـا وينكتون، وإذ بباربرا تسألني:

ـ وهل وُجدت حقاً مستشفيات في البلاد العربية قديماً؟

ـ نعم، وفي بغداد إبـان الخلافـة العباسـية، في القـرن العاشـر، حيـث كـانوا يسـمون المستشـفى: "بيمارسـتان" أي باسـمه الفارسـي، ويختـارون لبنائـه المواقع الصحية، متبعين طريقة بدائية للتحقق من جـودة الهـواء فلقـد كـانوا يعلقون اللحـوم في مواضـع مختلفـة مـن المدينـة، في آن واحـد، ويسـتبعدون الأمكنة التي يتعفّن فيها اللحم، ويشيدون البناء في الأماكن النظيفـة الهـواء. ويقول المؤرخون أن عدد طلاب الطب الذين تقدموا للامتحـان في بغـداد،

أيام خلافة المقتدر باللّـه، بلغ نحواً من تسعمائة تلميذ! أما صاحبنا "أبو بكـر الرازي" فقد تولى إدارة مستشفى في مدينة "الريّ" حيـث ولـد، ثـم رئاسـة أطباء البيمارستان العضدي في بغداد.

فسألت باربرا:

ـ وهل اهتممتم أيضاً بعلم النفس؟

ـ بكـل تـأكيد، إن لـلرازي كتاباً عنوانـه: "الطـب الروحـاني" عـالج فيـه الأمراض النفسية، كما أن "ابن سينا" وضع كتاباً معروفـاً بإسـم: "كتـاب الشفاء" وأفرد فيه بحثاً عن الموسيقى، وأثرها في شفاء بعض الأمراض.

وبينما كنت أدخن سيجارة قالت هيللا لباربرا:

ـ حدثني عصام مرة يا باربرا أن العرب عالجوا الجنون كما كانوا يعـالجون الأمراض الطبيعية، في حين كانت أوروبا القديمة تسميه: "المـرض الإلهـي"، أو "المرض الشيطاني"، ويحسـبه النـاس فيهـا مـن إصابـات الأرواح التـي لا فائدة ترجى من شفائها.

ثم التفتت هيللا إليّ، مسرورة بما أضافت، وقالت:

ـ إذن أنتم أصحاب الفضل في النهضة الأوروبية، والسـباقون في الحضـارة، أليس الأمر كذلك؟

فأجبتها بهدوء:

ـ لا! نحن لا نستطيـع تحـديد فضـل أمـة على أمـــة في معـرض الحديـث عن النهضات الفكرية والعلمية لأن الحضارة أخذ وعطاء، اقتبـاس وتجديـد، وكل ما في الأمر أننـا أمـة كـان لهـا أثـر بعيـد في إيصـال مشـعل العلـم إلى

أوروبا، في القرون الوسطى، وأن الغرب استضاء به، وقوّاه، فجعله منارة أضاءت بلاده ثم بلاد الشرق من جديد.

كان رئيف يصغي إلينا بصمت ولكنه تحمس عندما أمسكت عن الكلام وقال لزوجته مداعباً:

ـ ولولا العرب يا حبيبتي لما اكتشف كريستوف كولومبس هذه القارة التي نعيش فيها الآن، ولَحُرِمت من لقياك يا أحلى زوجة.

فأجابته على الفور:

ـ نحن لا نمزح يا "سُكّر"، وأنا أعرف أن العرب بلغوا شأواً بعيداً في الفلك والرياضيات والكيمياء، وأن بعضاً من المصطلحات العلمية ما زالت معروفة بأسمائها العربية ومنها: "القلويات" "ALKALI" و "الجبر" "ALGEBRA"، كما أن الأرقام الحسابية التي نستعملها هي عربية.

في هذه الأثناء وصل الطعام الذي أوصينا عليه، فانشغلنا بالتلذذ به عن الحديث التاريخي، وإذ بهيللا تصب في صحنها مقداراً قليلاً من السمكة المشوية وتقول:

ـ عندما أقول أنني أفضل الجوع على الشبع، واللباس الخفيف، حتى في الشتاء، على الثقيل، يستغرب أصدقائي كلامي، وأوّلهم عصام، وها قد ثبت لي اليوم، مما جاء في وصية أحد أجداده، إن الإقلال من كل شيء نافع، وكفيل بإطالة العمر...

فعلّقت على كلامها قائلاً:

ـ ولكن أرجوك، يا حبيبتي، أن تؤجلي "الريجيم" إلى يوم آخر لأنني أنا الداعي اليوم، وأنت تعلمين أنني قلما أدعو أحداً...

فابتسمت وقالت:

ـ لا أقبل يا "إيسام" أن تتّهم نفسك بالبخل أمام الأصدقاء، لأنه ليس من طبعك، وأشهد أمامهم بأنك كريم، ومسرف أحياناً...

كانت إجازة هانئة نعمنا بها، وعدنا بعدها إلى كليفلاند مساء الأحد، مزوّدين بنشاطٍ جديد، على أتم استعداد لاحتمال أيام أخر، حلوة ومرة في آن واحد، لأن دنوّ يوم الفراق بدأ يشحنها بالتوتر منذ الآن ويعكّر صفاءها، حين نفكر فيه.

كليفلاند في ١٩٧٣/٤/١٧

لقد عدت اليوم من نيويورك بعد أن قضيت فيها أربعة أيام مع ابنة عمتي منى، فكانت أياماً جميلة وهانئة. كنت قد خابرتها في الأسبوع الماضي واتفقت معها على اللقاء في نيويورك، لقربها من فيلادلفيا ولأننا متشوقون لزيارة هذه المدينة قبل مبارحة الولايات المتحدة الأميركية، كما سبق وذكرت.

تم لقاؤنا في مطارها الداخلي حيث وصلت في الثالثة بعد الظهر، وكانت منى قد سبقتني في الوصول إليها بالسيارة، وشاءت أن تستقبلني في المطار. كما أنها حجزت لنا غرفتين متجاورتين في بيت الطلبة، نزولاً عند نصيحة إحدى صديقاتها. كان لقاؤنا مبهجاً لأكثر من سبب: لأنه شفى غليل شوقنا إلى التنعّم بصحبة حلوة، فكرية وروحية، افتقدناها مدة طويلة، ولأننا فوجئنا، ساعة اللقاء، بأننا ما زلنا أطفالاً كباراً نحبّ المرح، ونجري في الحديث على سجيتنا، فلا تكلّف بيننا ولا حجاب، ولأننا أيضاً لم نخشى أعين الرقباء، فمدينة نيويورك عملاقة، تبتلع الملايين، ولا يوجد فيها "عذول"، أي من يبحث عن هناءة غيره ليعكّرها، لوجه التعكير والحسد!

وجدت أن منى زادت جمالاً ورشاقة بعد أن فقدت بعضاً من وزنها لأنها كانت في السابق تميل إلى البدانة، وقد جعلني نحولها أرى

عينيها أوسع من قبل، وابتسامتها أكثر عذوبة. تعانقنا ساعة اللقـاء وعدونـا لنخرج من المطار عدو التلاميذ المراهقين ساعة انصرافهم من المـدارس، ثـم أعربت لها عن إعجابي بازدياد جمالها وجاذبيتها فابتسمت وقالت لي:

ـ أما أنت يا عصام فلم تشب بعد، وما زلـت شـاباً وسيماً على الرغم من السنوات السبع تقريباً التي غبـت فيهـا عنـي، ولكنـك تقمصـت هيئـة الطبيـب، لا هيبتـه، فـأنت صـاحب هيبـة منـذ صغـرك... أظـن أن النظارات التي أصبحت، فيما أرى، لا تفارق وجهك هي السبب.

لقد أرضعت أمي منى مـع أخـي بشـار كثيراً، وهـي في الأشـهر الأولى من العمر، فهي إذن أختي بالرضاع، مما يحظر زواجي منها، وبعد أن شببت ووعيت تأسفت كثيراً لهذا الذي وقع، وصرّحت لأمـي وأمهـا، في أكثر من مناسبة، بأني لا أسـامحهما أبـداً إذ لـو لـم تكـن بيننـا تلـك الصلـة العائقة لزواجنا لكنا أقرب اثنين إلى التفاهم، وأسعدهما بالزواج!

منى فتاة حلـوة، حديثهـا عـذب ومنظـم كفكرهـا، وملاحظاتهـا دقيقة وثاقبة، ولكنها تميل فطرياً إلى الجدية والتأمل أكثر من ميلها إلى المـرح والكلام، ومع ذلـك بـدت لـي منشـرحة ومتفائلـة في الأيـام الأخـيرة التـي قضيناها معاً، ربما بسبب وجـودي إلى جانبهـا، وقـد أكـون مغتراً في هـذا الشعور غير أنها بدت لي هكذا....

كنت أسير معها سعيداً، فخوراً باصطحابها حيثمـا تجولـت، وإذا كان قد تغير فيها شيء آخر يذكر فهو شعرها. لقد قصت شعرها الطويـل

الكستنائي من أجل تسهيل الاستحمام والتسريح للتفرغ إلى الدراسة كما قالت. إن لها يدين صغيرتين جداً ومشية رشيقة تدل على حيوية وثقة بالنفس، وابتسامة مشرقة طال اشتياقي إلى رؤيتها. وساعة امتطينا السيارة لتوصلنا إلى مكان إقامتنا كانت الشمس ساطعة غير أن الشوارع التي مررنا بها بدت لنا نصف مظلمة وضيقة لأن البنايات الشاهقة، المنتصبة على جوانبها، تحجب عنها الأشعة السماوية، وتجعلك تراها ضيقة وطويلة.

أربعة أيام وليالٍ قضيناها في جولات ممتعة، وأحاديث أمتع حتى أننا تمنينا الاستغناء عن النوم للاستزادة منها، ولكن النوم سلطان، كما يقول حكماء الزمان! حدثت منى عن مشاريعي وصداقاتي، وذكرياتي، وعن هيللا وحبّنا، فتشوقت إلى معرفتها شخصياً ولكنها عرفت عنها الشيء الكثير، من خلال وصفي لشخصيتها، والحديث الذي أجرته معها تلفونياً يوم كلمناها لإعلامها بموعد رجوعي إلى كليفلاند. وحدثتني منى عن حياتها وتجاربها في السنوات الماضية حديث فتاة ناضجة، واسعة الثقافة، متحمسة للقضايا الإنسانية والعلمية، وللعروبة والحرية حماسة مخلصة تمتاز بالمنطق والرصانة قبل كل شيء.

تجنبت سؤالها عن اسباب فكّ خطبتها، وكانت قد كتبت إليّ من دمشق تعلمني بتلك الخطبة وتصف لي الشاب الذي طلبها زوجة له بفتور ومن دون أي ابتهاج. ثم أعلمتني بعد مدة قصيرة بعزوفها عن الأمر، ولم تعطني تفصيلاً عنه. خشيت أن تكون قد مُنيت بصدمة نفسية، ولكن

احترامي لها، ويقيني بأنها صاحبة الحق بإثارة الموضوع أو بالسكوت عنه جعلني أتجنبه في رسائلي السابقة، ومن ثم بعد لقائنا هذا الأخير. وإذ بها تفتح لي قلبها، ليلة البارحة، ساعة كنا نتحدث عن هيللا وحبي لها، ونتبادل الرأي في الزواج ، فقالت بصراحتها المعتادة:

ـ لم يعد الزواج، في رأيي، هدفاً للفتاة في عالم اليوم، ولا حاجة ماسة لتأمين عيشها، وحمايتها، و... لقد أوشكت أن أصبح ضحية التقاليد، وطاعة الوالدين، قبل ثلاثة أعوام، فيا لها من تجربة!

فقلت لها:

ـ وهل أنت نادمة عليها؟؟

ـ بكل تأكيد لا!! ولكنني أحسست في أثر تلك التجربة أنني هرمت، بل أني حملت هموم الدنيا كلها... ثم تغلبت بسرعة على تلك المشاعر، واستأنفت الدراسة بروح جديدة، وثقة قوية بمبدأ لن أحيد عنه بعد اليوم ولن أهتدي إلا بهديه: ألا أقدم على خطوة، مهما يكن نوعها، إلا إذا توافرت لدي القناعة التامة بها.

ـ وهل أفهم من كلامك أنك أُكرهت على الخطبة؟؟

ـ نعم! أكرهت، إذا شئت، ولكنه كان إكراهاً غير مباشر، وإليك القصة من أولها: عندما تقرّب من والديّ الدكتور غازي بالطلب المقدس قرأت في عيونهما، واستشممت من حديثهما، ميلاً كبيراً إلى مصاهرته، لا لمصلحة ذاتية، فأنت أعرف الناس بهما، ولكن من أجلي أنا، من أجل

سعادتي، حسب مفهومهما للسعادة. لقد ظنا أن زواجي منه سيغنيني عن مواصلة التدريس ويوفر لي حياة رخاء ونعيم، وكأن التدريس والعمل عبء على فتاة مثلي، بل كأن الرخاء المادي غاية بحد ذاته، لا وسيلة لمضاعفة النشاط، والحفز على تحقيق الذات. ولا أخفي عنك أني توسّمت بذلك الرجل خيراً لأنه متعلم، مظهره يشير إلى أنه تواق إلى حياة فكرية وبيتية تواكب روح العصر. هذا ما بدا لي منه بعد أن التقينا مرات متعددة في محافل اجتماعية وثقافية، فقبلت الإقدام على خطبة رسمية من أجل والدي في الدرجة الأولى، وبدافع التحدي لنفسي مع أنني كنت تواقة إلى الرفض، كما شرحت لك، من غير أن توجد لديّ مبررات ملموسة. رغبت إذن في معاشرة الدكتور غازي لفترة من الزمن كيلا أبني حكمي في موضوع جدي كهذا على حدس مبهم فأكون قد ظلمت الشخص الآخر، وظلمت نفسي، وارتكبت رعونة غير مغتفرة. خرجت معه، والتقيت به عدة مرات، وتحدثنا في كل موضوع بحرية وصراحة، وإذا به، خلافاً لمظهره، من ذوي الأرواح المطفأة، من زمرة المسرورين بأنفسهم جداً، وبما حققوه مادياً ومعنوياً، الرافعين سدوداً منيعة في قلوبهم دون تسرّب الحب والتضحية فيها، وسدوداً ليست أقل مناعة في عقولهم لتجنّبهم عناء التفكير والتعب!

أذهلني حديث منى، بل وصفها الدقيق لفئة الأنانيين، فقلت لها:

ـ لهذا وصفت لي خطبتك، يوم أعلمتني بفسخها، بأنها: غير مباركة... أليس كذلك؟؟ ولكني أعرفك شديدة التأثير في من يعاشرك، أوَ لم يكن في وسعك يا منى إشعال جذوة الحماسة في ذلك الرجل؟؟

فأجابت بهدوء :

ـ لا يا عصام، لقد عجزت عن إثارة اهتمام غازي بأية قضية أو موضوع يتجاوز ذاته بعد معاشرة استغرقت ثلاثة أشهر، ومحاولات مختلفة بأساليب مختلفة. تأكدت من أن أقوى الناس شكيمة وروحاً وصبراً سيعجز عن تغيير طبعه، وتطوير عقليته، لذا انسحبت من حياته غير متأسفة على التجربة. الغريب في الأمر أنه صنفني بين القلقين في الحياة وجاحدي النعم، ورافضي السعادة! لقد أرسل من يبلغني بأنه قدّم لي السعادة في دعوتي إلى العيش معه، واعتناق آرائه، لأنه واثق بأن اهتمامنا بكل ما عدانا، وبكل ما هو بعيد عن حاجاتنا الشخصية، متلف للوقت والأعصاب...

فقلت لها:

ـ إنه نموذج غريب حقاً، ألست مغالية في وصف أنانيته، وجائرة في الحكم عليه؟

ـ لا يا صديقي، المبالغة ليست من طبعي، كما تعلم، وإليك مثلاً عن غرابة ذلك الرجل: تحدثنا ذات مرة عن الأطفال، (وأنا مغرمة بهم، وإذا اتفق وتزوجت يوماً فسيكون زواجي من أجل إنجابهم بالدرجة الأولى) فأفهمني بصريح العبارة أن الإنسان العاقل (مثله طبعاً) لا ينجب أولاداً، لأنهم عاقون لا يجلبون إلا التعب الفكري، والإرهاق المادي...

ـ ولِمَ كان مقبلاً على الزواج إذن؟؟
ـ لم يفتني أن أطرح عليه هذا السؤال فأجابني بأنه يبحث عن زوجة قديرة تحمل عنه الأعباء المنزلية وتخطط تحركاته الاجتماعية لينفذها هو بدون عناء إذا وافقت هواه. لذا وزنت نفسي، فوجدت أنني أتوق إلى أن يكون الإنسان الذي سأقترن به رفيقاً وقائداً، ذا قلب حار ينبض بالحب، وأن يكون أيضاً قادراً على أن يفرض رأيه وذوقه ويدافع عنهما. هذا ما جعلني أنسحب بلباقة بعد أن أقنعت والديّ بالأسباب التي دفعتني إلى فسخ الخطبة، وهذا ما حمّسني على قبول المنحة وأوصلني إلى هذه البلاد للتخصص.
ـ حسناً فعلت يا منى، فالزواج الناجح لا يبنى إلا على المشاركة الفعلية بين الطرفين، والتوافق بين مزاجيهما، وقبولهما بالتضحية أولاً وآخراً لأن الأسرة تتطلب تنازلات من الرجل والمرأة، قبل ولادة الأطفال فيها وبعدها، بل حباً كبيراً بين الزوجين يجعل التضحية والعطاء نعمة لا نقمة.
كان الجو في نيويورك بارداً وماطراً أكثر الأحيان ولكننا كنا عنه لاهين بالطواف على أحيائها المشهورة، وبزيارة متاحفها الكبيرة، فزرنا أكثرها أهمية في نظري، أعني متحف "التاريخ الطبيعي"، وتمثال الحرية و"سنترال بارك" الذي قضينا فيه يوماً كاملاً. نزهتنا في بحيرة ذلك المنتزه الكبير الذي يتنفس فيه سكان نيويورك كانت ممتعة للغاية تحت المطر. خرجنا من الزورق مبللين كعصفورين فاجأتهما العاصفة وهما عن عشهما

بعيدان، فالتجأنا إلى مقهى قريب لنتدفأ أمام الموقدة وننشف ثيابنا وقد استعنا على تجفيف شعرنا برزمة من الورق ابتعناها من مقهى الحديقة، وأثنينا على مخترع هذا الصنف من المناشف الرخيص والموفور في كل مكان. المهم أن البرد لا يؤثر في منى ولا فيَّ، فقد تعودنا على شدته في هذه البلاد لأن المناخ سواء في ولاية "أوهايو" حيث أقيم، أو في ولاية "بنسيلفانيا" حيث تقيم منى قاسٍ جداً، صيفاً وشتاء. حدثتني منى عن جمال مدينة "فيلاديلفيا" وقدمها، وأعلمتني أن جامعتها التي تحمل اسم الولاية، تعج باليهود والأميركيين، وأنها لا تضم سوى عدد قليل من الطلاب العرب والأجانب. وكان لا مفر لنا من أن نتحدث عن القضية الفلسطينية فأعلمتها بما جرى لي مع الدكتور فيشر، في أثر حرب حزيران، وبآخر الأنباء التي تلقيتها من سورية عن حال "اللاحرب واللاسلم" التي تعيشها بلادنا ذات الحدود المشتركة مع إسرائيل. كانت منى تصغي إليّ بجميع حواسها، وعندما توقفت عن الكلام انبرت تسألني بلهجة ملؤها التعجب:

ـ في ذهني سؤال يا عصام فرض نفسه عليّ بعد زيارتنا أمس لتمثال الحرية، وما زال يشغلني، ربما تستطيع إجابتي عنه: كيف يقيمون بالقرب من نيويورك تمثالاً للحرية، والولايات المتحدة بلد محتل؟

ـ ماذا تقولين؟ أَوَ تَهْذين؟

ـ لا! أبداً! أرى أن الصهاينة يحتلون حقاً هذا البلد، وأنهم متحكمون بسياسته ومقدراته.

وقدّمت لي منى البراهين عن استيلاء الصهاينة على سياسة الولايات المتحدة، واقتصادها، ووسائل الاعلام فيها، وأضافت تقول:

ـ ولكني وجدت أن الشعب الأميركي لا يحب اليهود، فما زالت بعض الأماكن العامة من نواد ومطاعم وغيرها مغلقة في وجههم في عدد كبير من الولايات. وبعد أن احتككت بشباب كثيرين في العامين الماضيين وجدت أنهم يجهلون واقعنا وتاريخنا، وإذا عرفوا شيئاً عنا، كمجموعة بلاد، أو أفراد، فإنهم يعرفونه مشوهاً، لأنه يصل إليهم عن طريق إسرائيل. ثم لحظت أنهم يستغربون شدة تعلقنا بأرضنا فقد قال لي أحد أساتذتي الأميركيين بعد أن استمع إلى حوار أجريته حول قضيتنا مع بعض الزملاء نزولاً عند طلبهم، وهو شبيه، كما بدا من حديثك باستاذك الدكتور فيشر.

ـ أنا لا أفهم لماذا تعذبين نفسك وتقلقينها من أجل قطع أرض استولت عليها إسرائيل في فلسطين وسيناء والجولان فما زالت دمشق والقاهرة وبيروت عواصم عربية!!

فاقترحت عليه أن يتبرع لإسرائيل بأجزاء من ولايات بلاده الشاسعة الواسعة وأن يفرح ببقاء واشنطن عاصمتها! وقلت له:

ـ أَوَ يسرّك أن يحتل اليهود إحدى الولايات الأميركية ويرفعوا عليها علمهم، ويهددوا الولايات المجاورة؟؟ إن كل ذرة من تراب الأرض العربية مهمة، غالية، تعني لنا جميعاً الكثير الكثير، وليس للصهاينة أي حق في احتلالها، كما يشيعون...

فسكت، ولكنني أرقت في تلك الليلة وتمنيت أن يكون لي ألف لسان وأنف وعقل لأسخرها في سبيل شرح قضيتنا للعالم كله وللأميركيين خاصة.

صمتت مني قليلاً ثم استأنفت تقول:

ـ ولكنني أخشى كثيراً أن تكون القضية قد ماتت يا عصام!

فقلت لها معارضاً:

ـ لا ! لا أقبل أن أسمع منك مثل هذا الكلام، لأن قضيتنا حية، تزداد قوة يوماً بعد يوم، وقد أصبح لها أنصارها في كل مكان.

ـ أقصد أننا قتلناها بالكلام والغناء يا عصام. قد يفرح الناس بسماع البيانات عنها، وأخبار المناوشات التي تجري على حدودنا كلها، وفي فلسطين المحتلة، وقد يطربهم أن يستمعوا إلى الأناشيد والأغاني التي تصف حيفا، والخليل، وتشيد بجمال القدس، وتبشر بالعودة، أما أنا فلا يفرحني ولا يطربني شيء من هذا! إني أغتاظ وأتألم حين تضج أذناي بمثل هذه البيانات والأغاني، بل ازداد يقيناً بأننا جعلنا من القضية قميص عثمان ثانياً يجاري واقعنا المستغرب في هذا الربع الثالث من القرن العشرين... الأخطار تحيق بنا جميعاً من كل جانب ونحن عنها لاهون إما بمعارك داخلية تضعفنا، وإما بسهرات طرب نحييها حتى الفجر مع كواكب الغناء فتخدرنا!

أدركت قصدها، وعذرت تشاؤمها ولكنني قلت لها، برغم المرارة التي غمرت نفسي:

ـ صحيح أن القضية الفلسطينية، قضيتنا الكبرى، أصبحت منذ ربع قرن، سلعة دسمة في سوق السياسة التجاري، يساوم عليها الجشعون، ويعقدون صفقات، تكون تارة خاسرة، وتارة رابحة، ولكن يجب ألا نفقد الإيمان بأنفسنا وبقدرتنا على التحرر من سلاسل كثيرة تكبّلنا، نفسياً ومادياً. واعذري صراحتي إذا أضفت أنها السبب الرئيسي لما نتخبط فيه من اضطراب وتخلف في كل قطر من أقطارنا تقريباً.

ـ يجب ... كل هذا واجب، وأتمنى أن يكبر الأمل والرجاء لكن الحياة كلها ليست إلا رجاء في سراب تنتهي برداء من تراب!

وجدت أن الاستمرار في الحوار مع منى لن يجدي في تلك الأمسية، لذا حولت مجرى الحديث إلى موضوع آخر فقلت لها:

ـ لكم أحب أن تتزوجي سالماً، سالم الحصاد الفيلسوف، هل تذكرينه؟؟ إنكما توأمان في التفكير والمنطق والفلسفة، وهو من المعجبين بك منذ زمن بعيد.

فابتسمت منى وقالت:

ـ إذن نحن متوازيان يا عصام، والمتوازيان، في عرف قانون الهندسة والرياضيات، لا يلتقيان، بل لا يمكن التقاؤهما!

فضحكت من كل قلبي وقلت:
- يا لك من داهية!! هلمي نغادر هذا المكان، فالمسافة بينه وبين مأوانا بعيدة، والساعة قد بلغت السادسة.

كان آخر يوم قضيناه معاً في نيويورك حافلاً بالأحاديث واللقاءات، ولو قضيت مع منى أشهراً بطولها لما سئمت ومللت، فمنى تتجدد في كل يوم وساعة، إنها من النادرات اللواتي يبرعن في الحديث دون أن تجري على شفاههن العبارة التافهة. في صبيحة ذلك اليوم مشينا ساعتين في: "الحي الصيني" وكانت الشمس قوية فعطشنا، لذا دخلنا إلى "كافيتريا" صغيرة، وطلبت كوبين من عصير البرتقال، دون أن أسألها. كنت أعلم حبها للعصير منذ طفولتنا، ولم أتذكر رفضها له يوم لقائنا الأول في نيويورك إلا حين اعترضت تقول:

ـ أفضل أن أشرب كولا مثلجة.

فسألتها مازحاً:

ـ وهل بلغ تأثير أمريكا في ذوقك حداً يجعلك تفضلين "الكولا" على أطيب شراب وأنفعه وأحبه إليك، إذا لم تخني ذاكرتي؟

فأجابت، بعد تردد قصير:

ـ لا بدّ من الاعتراف لك بالحقيقة فأنت الوحيد الذي لا أخفي عنه شيئاً! ذوقي لم يتغير، وأنا ما زلت مغرمة بأكل البرتقال، ورشف عصيره، ولكني حرّمته إلى أن... قبل عامين تقريباً أقسمت ألا أذوقه.

لحظت في وجهها ونبرة صوتها تأثراً واضحاً، ثمّ سمعتها تقول:

ـ قضيت يومين في روما عند إحدى صديقاتي وأنا في طريقي إلى هذه البلاد. استقبلتني علياء في المطار ورافقتني طوال اليومين بسيارتها الصغيرة للتعرف إلى معالم تلك المدينة المتحف. إنها تسكن في طريق المطار وتتابع دراسة الرسم في كلية للفنون الجميلة وأذكر أننا رجعنا، في مساء الليلة الثانية والأخيرة، إلى البيت لنتناول فيه عشاء خفيفاً، وننام باكراً لأن موعد إقلاع الطائرة التي كانت ستقلني إلى نيويورك كان في ساعات الصباح الأولى. اشترينا من متجر كبير لحماً بارداً، وجبنا، وفاكهة وحلوى، وإذا بي أفاجأ بقراءة عبارات مطبوعة بالحبر البنفسجي على كل برتقالة حملناها "يافا ـ إسرائيل". لقد صُدمت، يا عصام، صدمة عنيفة لا أستطيع وصفها ولكني أستطيع وصف أثرها العميق في نفسي وأحلامي. تذكرت سنوات طفولتي وأحاديث أبي عن (بيارات) البرتقال التي أنشأها ورباها بيديه وقلبه، ثم تركها مع ما ترك للغاصبين المحتلين. كنت أحب البرتقال حباً جماً لأنه يمثل شجرة فلسطين الرائعة الخضراء التي لا تنفك تغدق على الناس زهراً وعطراً وماء زهر وفاكهة ذهبية مواسمها سخية على مدى السنة. ما زلت أحبه يا عصام، ولكن بمجرد التفكير بأن حبّة البرتقال التي وقعت في يدي ليلة اكتشفت مصدرها في روما، هي من بستان أبي، أو من حقل جارنا، أو حقل أي مواطن فلسطيني، وأن الذين يبيعونه للغرب يشترون بثمنه سلاحاً للفتك بنا، بنادق، وقنابل، وطائرات، لتشريد المزيد منا، إن مجرد التفكير بهذه

الحقيقة المروّعة دفعني إلى الامتناع عن تذوّقه بعد ذلك اليوم. لقد أضحى البرتقال عندي يا عصام، كل البرتقال، مرّ المذاق، فحرام عليّ أكله إلى أن أعود إلى أرض الوطن أو أموت! أما صديقتي علياء فقد تأثرت بما انتابني ووعدتني بأنها لن تشتري هذه الفاكهة ما دامت مقيمة في بلاد الغرب.

لم أعلّق على كلام منى بشيء، تفهمت غضبتها وهززت برأسي وقد ارتسم على قسمات وجهي حزن عميق. صمتنا بضع ثوان نقلتني بعدها بالحديث إلى موضوع آخر، إذ وجهت انتباهي إلى عصفور رائع كان يغرد في قفص فضي، بالقرب منا، على منصة "البار"، وروت لي الحكاية التالية تقول:

ـ منظر الطيور في الأقفاص يؤذيني يا عصام، إن سجنها فيها لا يقل جريمة عن صيدها، ولقد تذكرت الآن قصة، لا أدري أين قرأتها، هل تريد أن تسمعها؟

ــ كيف لا؟ أسمعها بكل سرور، ولن يفوتني، بالطبع، إنها كسائر قصصك، رمزية، ترمي إلى معان ومغاز يتطلب مني التقاطها بعض الجهد...

فضحكت وقالت:

ـ نظر شحرور، ذات يوم، إلى صياد في الغاب ينصب فخاخه فسأله: "ماذا تصنع هنا، أيها الرجل؟" فأجاب الصياد: "إني أبني مدينة، يا صغيري الجميل" فهاج الجواب شوق الشحرور للاطلاع على المزيد من أمر بناء المدينة، لذا تقدّم من الفخاخ، أكثر فأكثر، حتى علق بأحدها. فاستاء الشحرور المغفل مما حدث له، وصاح بالصياد: "تباً لك من غادر! إذا كانت المدن تبنى على هذه الشاكلة، فهيهات أن تجدها عامرة بالسكان!".

لا أخفي أن القصة أعجبتني فقلت لمنى قبل أن نتجه إلى المطعم، حيث كانت تنتظرنا صديقة لها اندونيسية على الغداء:

ـ إنك تخيفينني يا بنت العمة! بل إن الفخاخ، على الأصح، تخيفني، ونصيحتي الأخوية لك هي أن تكفي عن المزيد من القراءة والتأمل!

فأرسلت ضحكة صافية رنانة قلما ارسلت مثلها، وقالت:

ـ إن ما يجدر به أن يخيفك يا دكتور عصام هو الثرثرة العقيمة أو الصمت الغبي، لا أحاديثي وقصصي المستوحاة من وجودك...

وفي اليوم التالي ودّعت منى في محطة الباص الذي حملها إلى ولاية بنسيلفانيا .بمصافحة حارة تلاها عناق طويل بدون كلام. وعندما أخذت مقعدها فيه، وأطلت علي من النافذة وجدتني أقول بحماسة عفوية:

ـ إلى اللقاء يا منى، قبل أقل من عام في دمشق، حيث ستنضمين إلى صفوفنا. إن طلائعنا ستنتظرك، ونحن عازمون على تنفيذ مخطط جديد وعلى العمل المنظم من أجل العودة، بلا كلام ، ولا غناء!!

فمدّت منى كلتا يديها الصغيرتين من النافذة وضغطت على يدي فلمحت في عينيها ابتسامة دامعة قبل أن تغيب عن بصري، لا عن بصيرتي.

وفي ظهر ذلك اليوم وجدت هيللا بانتظاري في مطار كليفلاند ولكن منى ظلت مسيطرة على فكري ومشاعري. لقد ازداد إيماني بأنه لن يكتب لمخططنا وعملنا أي نجاح ما لم نحقق مزيداً من التضامن، ونتحلى بالشجاعة والإخلاص.فالشجاعة في مجابهة الواقع تقودنا حتماً إلى إصلاح أنفسنا ومعرفة حقيقة ضعفنا وقوتنا، ثم إلى بلوغ أمانينا. وجلّ أمانينا أن تعود إلى "البرتقال المرّ" حلاوته بزوال الاحتلال عن فلسطين ليعود الحق إلى أصحابه وتزول آثار المرارة من النفوس!

كليفلاند في ١٩٧٣/٤/١٩

فرحت أول أمس بلقـاء هيللا في مطار كليفلانـد. ضممتهـا إلى صدري بشدة وقبلتها بحرارة، وضمّنـت قبلاتـي كـل مـا أحمـل مـن شـوق إليها، وشيئاً آخـر لا أجـد لـه إسـماً، ربمـا يكـون ردّة فعـل للمشـاعر التـي اختزنتها نفسي خلال الأيام التي عشتها مع مني. فبقدر ما حزنت لفراقهـا وافتقدتها، فرحت بلقاء هيللا وقدّرت نعمـة وجودهـا إلى جـانبي. واليـوم فقـط اكتشـفت أن في أعمـاق الرجـل المتحكـم بعواطفـه، الـذي هـو أنـا، الواقعـي في منطقـه، رجـلاً عاطفيـاً يـذوب شـوقاً لكـل مـا يحـب، ويتـألم للانسلاخ عما يحب!

شعرت بالسعادة تغمرني ليلة وصولي وحاولت جهـدي ألا أعـدّ الساعات وأحصي الأيام التي تبقت لي هنا مع صديقتي. قررت أن أجعلها طويلة، هانئة، بلا برنامج محدد تخضع له ولكـن كثيراً مـا يحدث مـا ليـس بالحسبان! لقد استُدعيت هيللا ظهر هذا اليوم إلى المستشـفى، علـى جنـاح السرعة، بسبب غيـاب مسـاعدتها التـي أصيبـت بالتهـاب حـاد في الزائـدة الدودية وأجريت لها عملية مستعجلة. نحن على أبواب عيد الفصح وهيللا مأذونة منذ أول أمس وقد عزمت أن تقضي الأسبوع الأول مـن إجازتهـا معي قبل سفري، والباقي مع ابنها في السويد. كان لا مفر من أن تستجيب

للطلب المفاجىء، فهي الوحيدة التي تستطيع تدبير شؤون العمل والإسعاف في غياب زميلتها، فرافقتها إلى المستشفى حيث تسلمت عملها في الحال، وفهمت من المدير العام أنها ستبقى فيه ليل نهار أربعاً وعشرين ساعة ريثما يتدبر الأمر. خرجت إلى الشارع كالضائع تماماً، تجولت بضع ساعات سيراً على الأقدام فاكتشفت أحياء في كليفلاند كنت أجهلها لأني كنت أجتازها في السيارة، ثم حضرت شريطاً سينمائياً سخيفاً، ورجعت إلى بيتي الموحش بدونها فجعلت الموسيقى تملأ ما فيه من فراغ، وجلست أدون مذكراتي، وأكتب آخر رسائل إلى رفاقي، في دمشق.

استعرضت أيامي مع منى، وأحاديثها ومواقفها أمام كل مشهد أو حادث، فوجدت أنها تركت في نفسي أثراً عميقاً لا يمكن أن يزيله شيء. كان أكثر ما أثر فيّ حديثها الأخير، صبيحة يوم رحيلنا، بينما كنا نتناول طعام الفطور، ولا شك في أنها لمحت بريق فرح في عينيّ حين أفضت بالحديث عن عودتي إلى سورية، لأنها علقت تقول:

ـ أغبطك يا عصام على رجوعك إلى وطنك، إنك عائد إلى وطن تنتمي إليه، إلى وطن ثابت، معترف به وباستقلاله واقعياً وشرعياً، وموجود على خارطة العالم، وسوف يرحب بك أهله، وترابه. أما أنا فإن وطني الحقيقي تمزق، محي من الخرائط الدولية، أضاع اسمه وحدوده، ولكنه ما زال حياً في وجداني، وفي وجدان كل فلسطيني وعربي.

أدركت مني بأني تأثرت بكلامها، وتأذيت من سماعه يوم الرحيل، وهي الحساسة الليبية، فأضافت تقول بلهجة مغايرة للهجة الأسى التي سبقتها:

ـ غير أني أود البوح لك بحديث سمعته من أمي وأنا صغيرة وأضحيت أكرره في سري. قالت لي يوماً أن حق الوفاء يقتضي أن نحمد اللّه على صلة القرابة التي تربطنا بأسرتها الشامية، إذ لولاها، لولا وجودكم أنتم، أنسباءً لنا في دمشق، لكنا نحن: فوزي شيبان وحرمه وولداه من سكان المخيمات ولكنت أنا من مواليدها يا عصام!

فأجبتها مداعباً:

ـ ولكن ، هل فاتك ما حرمتنا منه صلة النسابة هذه، أنت وأنا؟

ففكرت برهة قصيرة وقالت:

ـ لم تكن صلة النسابة بيننا لتحرمنا من شيء، أنت وأنا لولا قصة إرضاعي مع بشار. إن لكل شيء ثمنه يا عصام ولا مفر من تأديته، ولعل الخير في الواقع إذا شئنا أن نتفلسف...

فابتسمت وقلت:

ـ تقصدين أننا كنا سنصبح في عداد الأشقياء بالزواج فيما لو تم بيننا؟

ـ ربما يكون ذلك... إن التكافؤ بيننا، فكرياً وخلقياً، يشير إلى نجاح زواجنا لو أتيح له أن يتحقق، ولكن، وبما أن "لكل شيء إذا ما تم نقصان"...

ـ هذه مسألة فيها نظر، وفلسفتك هذا الصباح، لا تروق لـي. هلمي الآن نستعد للخروج من هذا المكان، فالوقت في هـذه المدينـة يسبق الريـح، ولا تنسي أننا كنا، وسوف نبقى، أقرب قريبين ، وأجمل صديقين في العالم.

وقبلتها بحرارة، ثم سرنا في الشارع ممسكين يداً بيد.

كيف لا يؤثر فيّ حديث منى الأخير، وكيف لا أستعيد تفاصيله؟ استعدت تفاصيله بينما كنت في الطائرة عائداً إلى كليفلانـد فوجـدت أنهـا محقة في كل ما قالت. إنني إنسان سعيد لأن البيت الذي ولدت فيه موجود في دمشق، استطيع زيارته والتمتع بقطعة السماء التي تحرسـه عندمـا أشـاء، كما أن الشجرات العشر التي غرسها أبي في حديقتـه الصغيرة، مـا زالـت حيّةً، تنمو بحرية، تتنفس هواء وطني، وتتغذى من ترابه الطـاهر. أمـا بيـت أهل منى في يافا الذي تتخيله من خلال وصف أبويها له وبستان البرتقـال المجاور له، الذي تعودت أن تحلم به منذ طفولتها فقد حُرمت من رؤيتهما، وأضحيا ذكريات موجعة لا تشتم منها سوى رائحة الحطام. وإذا كان هذا حال منى، تختنق بالغصص كلما لاح في خاطرهـا مـا يذكّرهـا بفلسـطين، ويافا، وأرض أجدادها، فما بال أبيها وأمها وسائر النازحين الكهول، الذين أجبروا على فراق ما بنوه، وغرسوه، أي مـا عقـدوا عليـه الآمـال، في سـن الشباب، لكي يغنيهم، في الشيخوخة، عن الفاقة والذل؟؟

وفي طريقي إلى كليفلاند أيضاً تذكـرت أننـا التقينـا طبيبـاً سـورياً مقيماً في نيويورك ومتزوجاً من أمريكية يوم تناولنا الغداء فيهـا مـع صديقـة

منى الأندونيسية. كانت منى تعرفه جيداً فأقبل على مائدتنا يحييها فتعارفنا، ودعوناه إلى شرب القهوة معنا. لقد حدثني عما عاناه إثر عودته إلى دمشق بعد أن فرغ من التخصص في هذه البلاد، فأقلقني حديثه الذي دعاني إلى سرد قصته على صديقي نزار في الرسالة التي بعثت بها إليه، الليلة. كتبت لنزار أقول:

(هذه آخر رسالة أكتبها إليك، وقد تصلك قبل عودتي بأيام قليلة، فاعلم، منذ الآن، بأنك مطالب بالإجابة عما فيها بعد لقائنا مباشرة. تلقيت، دونما تأخر، ردك على تهنئتي بخطبتك وتعليقاتك على انطباعاتي عن "قصة حب"، وعن تجربتي في الولايات المتحدة. أنجزت مؤخراً التزاماتي الاجتماعية والدراسية ونلت نتائج مرضية، ولا شيء يشغل بالي الآن سوى الاستقرار في الوطن والإسراع في الإسهام معك ومع رفاقنا في تنفيذ عمل سياسي منظم تحقيقاً للعهد الذي قطعناه على أنفسنا يوم كنا شباباً صغاراً.

ما زلت أعتقد بأننا مطالبون ببذل الجهود لخدمة الوطن على أسس متينة واضحة، نستلهمها من واقع بلادنا الجغرافي ومكانتها التاريخية، وما تتطلع إلى بلوغه في المستقبل. مهما تكن مشاغل كل واحد منا كثيرة فإن الواجب يدعوه إلى الخدمة: العمل السياسي، أو الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو الصحفي، حسبما يتفق مع استعداده وعلمه. يجب أن نستقطب طاقات الشبيبة كلها في دعم الحركة التصحيحية التي حدثتني

عنها مفصلاً في رسالتك الأخيرة. قلت لي إن ما تخرب في سبع سنوات لا يمكن أن يصطلح في سنة أو سنتين، إذن أنت مقتنع بأننا في صدد إعادة بناء تهدم على أسس متينة جديدة، وهذا يعني يا صديقي أن الاستفادة من الكفايات الموجودة لدى المواطنين المعزولين عن العمل أمر أساسي، ملحّ، لا بد من تنفيذه لبداية عهد جديد يستهدف المصالحة الوطنية والعدالة. وأود أن اقول لك بصراحة أكبر إنه لا يوجد بين المواطنين في بلادنا خونة ولا جبناء، قد يوجد محتكرون، وجهلاء، ولكن لا الخيانة، حمداً للّه، من خصالنا، ولا الجبن، فلم لا نعطي الفرصة لامتحان جميع المواطنين ثم نحكم عليهم، ما دام الهدف تقويم ما أعوجّ، ورفع الظلم ومحو الأحقاد؟ ولا يفوتنك يا نزار أنك سبقتني إلى ما أقول عندما أكدت لي في رسالتك أنكم تقومون بثورة على الثورة، بثورة بناءة، إصلاحية، على ما كان ثورة طائشة مرتجلة. وعندما نثبت للناس في الداخل وفي الخارج، أننا مؤمنون بالخطى الجديدة التي رسمناها، وقادرون على حماية الفرد، وعلى إطلاق حريته في العمل والتفكير، وعلى تطبيق القانون على الجميع، وصيانة كرامتهم، عندئذ فقط يحق لنا أن نعاقب كل من يتخلف عن تأييدنا وعن المشاركة في النضال! إنني ما زلت أتحسر كلما يمر بخاطري منظر شبابنا وكهولنا المتقاعدين الذين سُرّحوا من وظائفهم لأسباب سياسية فإن لي ولك بينهم أقرباء، ويا حبذا لو نستطيع تدارك هذه المأساة وتجنب تكرارها. ولا أخفي عنك أني معجب بالذين أقدموا على الدراسة الجامعية

من هؤلاء بعد أن تجاوزوا الثلاثين، أو الأربعين من أعمارهم، أما الذين تعاقدوا على العمل في البلاد العربية من ذوي الاختصاص، وانتقلوا إليها مع عائلاتهم فإننا خسرناهم، بلا شك، في حين كسبتهم الدول الأخرى، وهكذا صدق المثل القائل: "مصائب قوم عند قوم فوائد".

إني سعيد بمخاطبتك يا نزار هذه الليلة ومتفرغ للكتابة، فلا تلمني إذا أطلت. لقد علمت من رسائل الرفاق أن سالماً حدثك في هذا الموضوع، أكثر من مرة، وأود أن أطلعك على ما جاء في رسالة تسلمتها منه حديثاً، كتب فيها يقول:

"... نحن نعيش اليوم في بلد مفتوح على العالم، كل ما فيه، ابتداءً من موقعه الجغرافي، ومروراً بدوره التاريخي، وانتهاءً بنباهة أبنائه يدفعه إلى الانفتاح. أقول "اليوم" لأننا خرجنا من عزلتنا الطويلة في الآونة الأخيرة حمداً للّه! ونحن ندرك، تمام الإدراك، أن ثمن الحرية باهظ، وأن المحافظة عليها بعد اكتسابها أصعب من نيلها، لذا أقول إننا في حاجة إلى التضامن والتآلف والتفاهم بيننا جميعاً، كادحين وميسورين، وأكثرنا في الحقيقة كادح يا صديقي، وتوّاق إلى الحوار الحر البناء. سوف تصل قريباً إلى الوطن العربي وتلمس بنفسك توق الجماهير إلى التعاون مع المخلصين، وتفهّمها لضرورة إصلاح الحال في شتى الميادين، وتجنّب الوقوع في أخطاء الماضي القريب. وليست غبطتنا في هذه البلاد بالانتقادات الجريئة التي سمعناها، وما زلنا نسمعها ونشاهدها في بعض المسارح العربية، وعلى شاشات التلفزيون في القاهرة ودمشق وبيروت، سوى الدليل القاطع على ما أقول. ناهيك عن إقبال الناس الكبير، في سورية مؤخراً، على برنامج

إذاعي يومي حرّ يدعى "استوديو ٢٦" لأن اهتمامهم بمتابعته، وسيل الشكاوى التي تتدفق عليه كل يوم من سائر أنحاء بلدنا دليل آخر على حاجتهم للحرية والحوار، وعلى استعدادهم للتعاون مع المسؤولين من أجل توفير حياة أفضل"، كما أنه يبدو لي يا نزار أن البلاد التي تلتقط إذاعة دمشق في غنى عن الإطلاع على مشاكلنا الداخلية فهي أمور تعنينا وحدنا، والمجاهرة بها إذاعياً تضرّ بنا خارجياً أكثر مما تفيدنا داخلياً. أقول هذا إذ أعتقد بأن الإنسان يرى الأمور على البعد بصفاء وهذا ما يدفعني إلى التساؤل: أو ليس الأفضل أن نجعل من الصحافة جسراً يصل بين الحكومة والشعب، وأن ندع الإذاعة تهتم بأهدافها الأساسية؟؟

إن مما دفعني إلى الكتابة إليك أيضاً هذا المساء قصة غريبة اطلعت عليها في نيويورك مؤخراً عاشها زميل لي وهو طبيب متفوّق من أصدقاء ابنة عمتي منى شيبان، أتذكرها؟ رجع إلى دمشق بعد أن تخصص في أمراض الغدد الصماء فلاقى من الصعوبات للالتحاق بالجندية فوق ما تتصور، ويكفيك أن تعلم أنه ضيّع أربعة أشهر متنقلاً بين مختلف الوزارات والمؤسسات الحكومية لتهيئة أوراقه الثبوتية، فصبر وكابر، ثم سجل اختصاصه في كلية الطب، وبعد أن فرغ من خدمة العلم، أي بعد حوالي ثلاث سنوات من عودته، صدر مرسوم تعيينه أستاذاً في جامعة دمشق. المفاجأة الكبرى كانت أن المسؤولين عينوه أستاذاً في أمراض الدم وتركوا كرسي اختصاصه فارغاً!! كاد يفقد صوابه، فراجع وسعى، ولكن مجلس الجامعة صمّ آذانه وفرض عليه أن يدرس مادة لم يكن مهيّئاً لتدريسها، لقد

ساءه أن يوضع في مكان لا يتناسب مع عمله ولا يتوافق مع حصيلة سنوات سبع قضاها في الغرب، لذا رجع إلى الولايات المتحدة حيث تنازعته الجامعات وتزوج فتاة أميركية وأصبح في عداد المغتربين لا باختياره، ولكن على رغمه!

قصصت عليك حكاية زميلي لأنها أقلقتني بل جعلتني أخشى التعرض لمثلها يا نزار، فأرجوك أن تعمل على تنبيه المسؤولين إلى خطورة هذا الأمر، لا من أجلي فحسب، بل من أجل رفاقنا، وأنت تعلم، أكثر مني، أن مصلحة الوطن تقتضي أن يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب. هل تذكر كيف كنا ننتقد، في اجتماعاتنا القديمة، ما كان يثيرنا من أمثال هذه الحوادث في العهود السابقة، يوم كان طبيب الأسنان يُعيّن وزيراً للتربية والتعليم، أو سفيراً، والدكتور في الفلسفة وزيراً للصحة؟ الخ.. الخ...

وقبل أن أنتقل بك إلى وصف مدينة نيويورك أود أن أقول إن عدداً كبيراً من شبابنا الذين اتصلت بهم في خلال إقامتي الطويلة هنا، راغبون في العودة، مشتاقون إليها، وإنهم على اتصال مستمر بالعالم العربي يتسقّطون أخباره، مما يجعلهم مدركين ما يحدث فيه ومستائين للغاية. ولا تنس أنهم يعودون متشبعين بأفكار جديدة يجب أن نأخذها بعين الاعتبار، وأنهم يعتبرون أنفسهم ضحايا موجات مروعة من التضليل وضحايا مؤامرات حيكت ضدهم، وأعني ضد بلادهم، وأطاحت بأمانيهم وآمالهم، لذا تراهم مصممين على الرفض، على رفض الهزيمة والتضليل،

والتآمر والاستبداد والزيف. وأخيراً أقول لك بصراحة إنهم رافضون أن يقفوا في الميدان وقفة العاجز عن عمل أي شيء، المكبل في الساحة.

والآن سأرفه عن نفسك بهذا المقطع الأخير يا نزار وأصف لك مدينة نيويورك حيث قضيت مع منى أربعة أيام. سوف تقول: ما تصنع الأيام الأربعة في مدينة مثل نيويورك، تضم عشرة ملايين نسمة، وتتطلب أشهراً، بل سنة على الأقل، لكي يتعرف إليها الزائر معرفة صحيحة؟ فأجيبك بأنها لا تصنع شيئاً ولكن مع ذلك، سأنقل إليك انطباعاتي عنها: فإذا وُجدت مدينة في العالم استطاعت أن تغتال أحلام الإنسان فإنها نيويورك لأن ناطحات السحاب غزت أرضها وسماءها، وحجبت عن سكانها الأفق والنور كما أن طرز بنائها وتصميمها قتل فيها كل أثر للسحر، مع أنه دليل على عظمة الإنسان، وعبقرية الهندسة في القرن العشرين، وعلى فن العمران الحديث الذي لا يخلو من العظمة والجمال ولكن السحر غير الجمال، كما تعلم، فأنت لا تبصر فيها إلا أحجاراً متراصة، ومباني من الاسمنت المسلح شاهقة، وواجهات رائعة، بعضها بلا لون، وبعضها الآخر ملون. من تلك الأبنية وواجهاتها الزجاجية العظيمة يشرف السكان والزوار على المدينة، وإذا سألتني رأيي في شعورهم أقول لك إن إطلالة المرء هذه مما يتحجّر له القلب، وتتصلّب حياله الأعصاب، هواؤها خانق ومسموم، تتوزعه الملايين المكدسة، وما أنت، أيها الزائر الغريب، إلا نملة متطفّلة معرّضة للسحق في كل وقت، ولا مناص لها من استنشاق هذا الهواء، وبالتالي من الشعور بالانقباض. وقد علمت من منى بأن الأديب الكبير أمين الريحاني وصفها في تأبين جبران خليل جبران فقال: "يكفي الشرق فخراً بأن جبران نشر

تعاليم الروح في مدينة قلبها من حديد، ودماغها من فولاذ" عبثاً تتطلب فيها دفقة هـواء نقيـة، ومـا عليـك إلا أن تمـج مـا تتلقـى، وتعطـي فضلتـك منـه للآخرين من الكائنات الحية.

لكم أصبحت مشتاقاً إلى العودة يا نزار! اعترف إليك بـأني بتّ أحلم، لا بدمشق وماء فيجتها النمير فحسب، بـل بـالريف، وبأيـة قريـة أو بلدة صغيرة في وطني يكون فيها الهواء عليلاً، والجمال طبيعيـاً، حتـى ولـو كان بدائياً. وعلى ذكر توق أمثالي إلى الحيـاة الطبيعيـة يسـرني أن أعلمـك بأن كثيراً من الأميركيين بدأوا يؤلفون جمعيات تعاونية هدفها الهروب مـن المدن الكبيرة واللجوء إلى الأرياف. إنهم يستأجرون أو يبتاعون مسـاحات قابلة للزراعة وتربية المواشي للإقامة فيها إقامة دائمة، يتوازعون العمل نسـاءً ورجالاً وأطفالاً، كل حسب كفايتـه، فيبنـون دورهـم، ويفلحـون الأرض ويزرعونها، ويعلمون أولادهم، ولا يدعون كبيرة أو صغيرة تفوتهم لتـأمين عيش صحـي هـادىء لهـم ولأسـرهم! لقـد اثبتـت الإحصـاءات أن نسـبة المصابين بالسمنة والأمراض الخبيثة والأمراض العصبية في الولايات المتحـدة ارتفعت بمقدار كبير في النصف الثـاني مـن هـذا القـرن بسـبب نمـط الحيـاة الجديـدة في المـدن الصناعيـة، وافتقـار النـاس إلى الهـدوء والهـواء النظيـف ولسوف يغدو تلـوث الهـواء في العـالم واكتظـاظ السـكان في المـدن أكـبر معضلة يواجهها الناس في السنوات المقبلة.

لقد تحدثت بوصفـي طبيبـاً درس هـذه الظواهـر ودوافعهـا وبـات مؤمناً بنفور الإنسان مـن الضجيـج ومـن السـباق مـع الزمـن، وبحاجتـه إلى الطبيعة، وموسيقاها وإلى الالتقاء مع نفسه، ومع أصدقـاء لـه وأقـارب، مـن

وقت إلى آخر، فلننعم يا صديقي بما عندنا من سحر، وهدوء، وألفة، ومودة، وإلى اللقاء.

عصام

حاشية: للمزيد من رغبتي في الترفيه عن نفسك يا نزار وفي شرح قصدي من الدعوة إلى العودة إلى الحياة الهادئة الطبيعية أضيف قائلاً: إني لست متشوقاً إلى التأمل والكسل، ولا داعياً إليهما، بل أتشوق إلى العمل حتى آخر عمري في بيئة هادئة طبيعية. شاهدت هنا الرجال والنساء يعملون في شيخوختهم أعمالاً تتوافق مع هواياتهم بعد بلوغهم سن التقاعد، وأعجبت بهم. إنهم لا ينسون شيخوختهم في شبابهم، بل يتهيأون لاستقبالها بالتدرب على هوايات وحرف لأنهم يحسبون لكل حال حسابها، لذا تراني مقدراً وعيهم ومتمنياً ألا أفقد الحيوية في شيخوختي وأن أظل إنساناً عاملاً حتى بلوغ سن متأخرة يشعر بأن وجوده نافع ومهم ولو كان يوهم نفسه بهذا الشعور! العمل للإنسان كالشمس للزهور والنباتات والكائنات الحية، إذا غابت عنها تذبل وتمرض، ثم تذوي وتموت.

إني متأكد من أنك ستقرأ رسالتي هذه على سالم وسمير، وأن سالماً سيعجب بحاشيتي هذه لأنها ترضي نزعته الفلسفية، فإلى اللقاء بجلسات حلوة معكم، عما قريب بَلَغَ اشتياقي إليها مبلغاً كبيراً، فلكم مودتي والسلام.

عصام)

كليفلاند في ١٩٧٣/٤/٢٦ (الساعة العاشرة صباحاً)

ودعت حبيبتي هيللا وشعرت بأني انسلخت عن هذه المدينة وعن هذه الأرض مع أني ما زلت فيها مقيماً! هذا الانسلاخ الذي لم يتم عملياً بعد، يوجعني، يملأ حلقي بالغصص، فماذا يكون شعوري عندما يتحقق ويصبح أمراً واقعاً؟؟ لا أدري! الأفضل ألا أدري الآن إذ يكفيني ما بي. عشت، أسبوعاً مجنوناً، ليل نهار، مع هيللا وبين ذراعيها، وعاشت معي تلك الساعات المترعة بالحب والحنين، لا الحنان، لأننا كثيراً ما عجزنا عن تراشق عبارات الحنان في خلال التنزه أو الرقص، أو غيرهما. وما صمتنا هذا المذهل سوى دليل على ما كان يخالجنا من حنين إلى ما نحن فيه لأننا نعي أن كل دقيقة تمر تسرق من هناءتنا الحاضرة، وتدنينا من شقائنا المقبل. كنا، في السنوات الخالية، نجاري الطبع في صلاتنا أي في لقاءاتنا الاجتماعية والخاصة، أما في هذه الأيام الأخيرة، فقد أضحينا متكلّفين، كل واحد منا يداري شعور الآخر، يراقب حركاته وكلماته تجنباً للإيذاء أو الاستعطاف، أو خوفاً من الصراحة لأن الصراحة موجعة في مثل هذه الحالات. ليتني كنت قادراً أن أذيع على مسامع هيللا وعلى الناس الذين أخالطهم هنا أجمعين، مشاعري الحقيقية إذن لقلت لهم: إنني شاب عاشق مضطر إلى فراق من يحب، وإذا سألني أحد: من يضطرك إلى فراق من

تحب؟ أجيب بجرأة: حب قوي آخر، من نوع آخر، ولكنه ملحّ، عميق الجذور، عنيد، لا مفرّ من الاستجابة إليه: إنه حبّ وطني! وإذا عجزوا عن فهمي ولاموني لأني لم أحاول التوفيق بين حب المرأة التي بها أعجبت وهمت، وبين حبّ الأرض التي أنبتتني، والأهل الذين ربوني وباتوا على أحرّ من الجمر للقائي، أقول لهم بلا وجل: إني أحرص منكم على التوفيق بين الحبين، ويا حبذا لو كان هذا ممكناً ولكن الأقدار تفرقنا حيث العواطف تجمعنا، في كثير من الأحيان.

لم أخادع في حبي لهيلـلا ولـم أراوغ، كنت معها صريحاً منذ البداية، ففهمتني، وشجعتني على الاستجابة إلى نداء أرضي، حباً بي، وحرصاً على سعادتي. إنها تعلم أن اغترابي هنا سيسبّب شقائي حتى لو قضيته معها سعيداً بحبي لها وحبها لي، ولهذا كله اقول إن هيلـلا امرأة عظيمة، وإن حبها لي أفضل من حبي لها لخلوّه من الأثرة.

سلّمت الشقة التي أسكنها يوم أمس ونزلت ضيفاً على صديقي الدكتور كيوشي. أما يوري، خطيبته، فإنها حقاً سيدة بيت رائعة في ذوقها ومهارتها في ترتيب الزهور وإعداد الطعام والإشراف على نظافة البيت. لم أر في حياتي أحرص من المرأة اليابانية على النظافة في ملبسها ومأكلها وبيتها، ولم أر أبرع منها في اللمسات الفنية التي تطبع بها كل ما تفعل بطابع جميل: آنية الزهر، ومائدة الطعام، وأثاث البيت وثيابها وزينتها. لقد أعطت يوري في كليفلاند دروساً عملية في تنسيق الزهور وكانت هيلـلا

من اللواتي تعلمن على يديها، وأذكر أنها أقامت، في العام الماضي، معرضاً للزهور في كليفلاند لاقى إقبالاً ونجاحاً كبيرين.

هذه الصفحات هي آخر ما أخطّ في مذكرتي قبل مغادرة كليفلاند. كان مفروضاً أن أنام بعد السهرة الجميلة التي قضيناها في بيت كيوشي مع رهط من الأساتذة والأصدقاء، فقد غادر المدعوون البيت في حوالي منتصف الليل، وبقينا، هيللا ويوري وكيوشي وأنا نتسامر حتى الثانية صباحاً، ثم أوصلت هيللا إلى شقتها وعدت وحدي إلى غرفتي الصغيرة. إني لا أشعر بحاجة إلى النوم بل أشعر بأنني صحوت من إغفاءة قصيرة، مريحة، كالتي كانت تستولي على يقظتي وتسلبها مني فترة وجيزة أيام الدراسة الشاقة، لتعيدني، بعد ذلك، إلى كتبي ناشط الذهن، مرتاح الأعصاب.

قررت هيللا أن تسافر قبل ظهر اليوم إلى السويد، أي قبل سفري بساعات قليلة وأعلمتني بقرارها هذا مساء أمس فقالت:

ـ أفضّل يا "إيسام" أن تودعني أنت. ربما تفسر تصرفي هذا بالأنانية لذا سأبين لك غايتي منه: إنها رغبتي الأكيدة في أن أكون دوماً باستقبال من أحب. الوداع يا حبيبي، وداع المحبين، سخيف، ومحزن، سخيف لأنه يرغمهم على تكلف الابتسام وعبارات التفاؤل لتغضية كربهم، ومحزن إذ كثيراً ما يعجز اللسان عن الكلام وتفيض العين بالعبرات.

فتأثرت وقلت لها:

ـ صحيح ما تقولين يا هيللا، وأنا مثلك أكره وداع الذين أحبهم ولكني أنظر إلى الفراق نظرة مختلفة لأخفف وطأة الحزن على نفسي وعليهم: أرى أن الحياة برمتها وجود مؤقت، كل ما فيها من حلو ومر عابر، نعيشه ونتأثر به ثم يزول ويتبخر، غير أن أثره يبقى حياً في ذواتنا، وبقدر ما نكون قد عشنا الحادث بعمق بقدر ما يقوى أثره في نفوسنا بعد زواله.

فأطرقت برهة ثم قالت:

ـ إني معجبة بفلسفتك، يا صديقي، ودعوتك لكي نتقبل لوعة الفراق بروح رياضية ونرضى بالمنفى المفروض علينا في الوجود، أليس هذا ما تريد؟

ـ لا أريد شيئاً ولا أدعو إلى موقف خاص لأن إرادتي عقيمة، لا وزن لها أمام الواقع الحتمي، وإنما افضّل يا هيللا ألا نخوض في لجج التفكير بمثل هذه الأمور العاطفية خوض المشفق على نفسه وعلى مصيره وعلى غيره، أفضّل أن نتغلب على الضعف في أنفسنا، أن نهزمه بدلاً من أن ندعه يهزمنا، أن....

فقاطعتني وقالت:

ـ أنت شرقي وعاطفي يا "إيسام" ومما جعلني أهيم بك وأشغف هو أنك إنسان رقيق الشعور، مؤمن بالروح ومخلص مع نفسك، وأنك في الوقت ذاته، رجل متفهم للطبيعة الإنسانية، وطموح إلى الأفضل. ثم أنت مختص

بأمراض القلب وجراحته، تعرف أكثر من غيرك أسرار هذا العضو الرهيب الذي تتوقف على نبضاته الحياة، فَلِمَ تناقض نفسك وتقول: الأفضل أن نتغلب على الضعف في أنفسنا؟.. إني أفهم من كلمة: "الضعف" في هذا المعرض، العاطفة التي تنبع من قلوبنا، فهل لك أن تفسّر لي لماذا تسمي الحب ضعفاً؟ والعاطفة انهزاماً؟؟

أذهلني منطق هيللا وحديثها الجدي في موضوع لم يسبق أن خاضته معي بتلك الصراحة ساعة كنا جالسين وحدنا في بيتها عندما ذهبت لاصطحابها إلى حفلة العشاء التي أقامها كيوشي ويوري بمناسبة سفري. هزتني كلماتها ودعتني إلى إعادة النظر في الآراء الاعتباطية التي عرضتها في مطلع حوارنا، أعني أنها دعتني إلى مجابهة الحقيقة بجرأة، وإلى تصفية الأوهام من فكري، فانحسر ضباب الفلسفة والتكلّف عنه فجأة، وقلت لها:

ـ إن لكل موضوع يمس حياتنا وجهين، السلبي والايجابي، والغاية من الحوار فيه استنباط الحقيقة يا هيللا، ولا بد لي الآن من الاعتراف لك بأنك دنوت منها أكثر مني، كما أن حديثك قد ساعدني على اكتشافها.

ـ هل تقصد أنك بت لا تعتبر الحب ضعفاً، والاستجابة للعاطفة هزيمة؟؟

ـ نعم ، بكل تأكيد وأزيد على هذا بأن نعت الحب بالضعف والاستجابة إليه بالهزيمة من نوع خداع الذات، والرغبة العقيمة في سيطرة العقل على القلب لإيهام أنفسنا بأننا أقوياء، أذكياء... بينما العكس هو الأصح.

فنهضت هيللا مشرقة الوجه وعانقتني بهدوء، ورشفتني بقبلات حنون وقالت:

ـ ما أغبى الناس الذين يرفضون الطفولة والانسياق مع الأحلام، ومسايرة الغريزة الطيبة، وما أشقى الغرب، يا حبيبي، لأنه وضع سدوداً في مدينته الحديثة بين الإنسان وطبعه الفطري، وأخذ يرفض حق الناس بالحلم والبساطة والحرية. نعم قلت الحرية لأن الحرية ليست في رفع الأعلام، وتوقيع الاتفاقات، وإطعام الناس، وتشغيلهم، وتأمين الخدمات الصحية لهم ولأولادهم، الحرية يا "إيسام" هي، قبل كل شيء، في السماح لهم بأن يحبوا بصدق وعمق، ويحلموا، ويفرحوا، وبأن يهدموا اسوار الصقيع التي ترفعها الحضارة الآلية لتسدّ في وجههم خيوط النور، ودفقات الحرارة، ونبضات الحب. أظن أن "كامو" هو الذي قال: "المجد هو القدرة على الحب بلا حدود".

كنا قد تأخرنا في الوصول إلى بيت كيوشي فسبقنا المدعوون إليه بسبب هذا الحديث الأخير بين هيلا وبيني الذي فعل في التقريب بين شخصينا ما لم تفعله صحبة السنوات الماضية. لقد تطورت آرائي منذ مساء أمس وأدركت الآن، وأنا أشهد ولادة الفجر في افق مدينة كليفلاند أن بالحب، والحب وحده خلاص الإنسان من النفاق، والابتذال، والأوهام، وإن قوته وسعادته الحقيقية، بل ومجده في أن يحب بجميع حواسه وروحه وهو مقدر معجزة الحب وروعتها وعذوبتها.

عندما بلغت الساعة الرابعة صباحاً وتنفّس الفجر نهضت أسير باتجاه نافذة غرفتي التي كانت ستائرها مفتوحة، فعببت من نسمات

الصباح الجديد أنفاساً ذكية. لقد انجلت لي أمور كانت غامضة من قبل وأدركت أن نجاح سهرة كيوشي ويوري البارحة، وأن الأنس الذي نثرناه، هيلا وأنا، على الحاضرين، والأحاديث الحلوة والنكات البارعة التي أطلقناها على مسامعهم، دونما تكلف، إنما كانت نتيجة توصلنا إلى تفهم واقعنا، والاعتراف بحقيقة مشاعرنا، ووزن عمقها وتأثيرها. قضينا، كما قلت في مطلع هذا الفصل، أسبوعاً موجعاً، خفّت فيه عبارات المداراة والمداورة لأننا جبُنّا عن مواجهة الواقع وتسمية الأشياء بأسمائها الصحيحة، ولو نعمنا بحديثنا المنقذ الأخير قبل أسبوع لكنا تجنبنا ما قاسينا خلاله من ألم، وما فرضنا على نفسينا من تزوير.

هيللا! هيللا!! كيف يمكن أن تغيبي عني وأنت ممزوجة في دمي، ساكنة في قلبي، ومسيطرة على عقلي،؟ لقد تعلمت منك أن أكون رجلاً قوياً وحراً، وأنا سعيد بما تعلمت، وأتمنى لكل رجل أن يعثر في حياته على امرأة مثلك تجدد في عينه شباب الأشياء، وتبدّد عن افقه غيوم الكآبة، وتنقذه من التفاهة والابتذال، وترشده إلى دروب المجد والإبداع.

غفوت بعد طلوع الفجر ما يقرب من ساعتين صحوت بعدهما فجأة والشوق إلى رؤية هيللا يغمر قلبي وفكري، فنهضت من فراشي وارتديت ملابسي مستجيباً لنداء القلب. حملت إليها إحدى باقات الزهر التي أعدتها يوري، وتوجهت إلى بيتها مبتهجاً، فطرقت بابها وأيقظتها لنستمتع بالساعات التي تبقّت لنا قبل سفرها حتى آخر قطرة في الكأس.

وبينما كنت متوجهاً إلى بيتها وجدت نفسي، أهمهم أغنية "رباعيات الخيام" إنها أغنية قديمة لم أسمعها منذ عشر سنوات ولكنني أذكر أن ابي وأمي كانا مولعين بسماعها فأحببناها في صغرنا مثلهما، وفي مطلعها تقول صاحبة أروع صوت في الوطن العربي، أم كلثوم:

سمعت صوتاً هاتفاً في السحر

نادى من الغيب غفاة البشر

هبّوا املأوا كأس المنى قبل أن

تملأ كأسَ العمر كفُّ القدر!!

أما كيف تذكرت الأغنية هكذا فجأة، فإنه سرّ من أسرار العقل، من غوامض تلافيف الذاكرة، وأنا لست مختصاً بالجمجمة والدماغ لكي أجلو الدوافع التي تأمر خزائن الذاكرة بأن تُفتح بعد أن تكون قد أُغلقت عدة سنوات.

دمشق في ١٩٧٣/٤/٢٩

غادرت ردهة المطار مرهقاً لكثرة ما ضغطت على أعصابي عبارات المجاملة، والتمنيات الطيبة من رفاقي وأستاذي الدكتور جاكسون الذي حمّل نفسه مشقة مصاحبتي إلى مطار كليفلاند. وعدت بتزويدهم بأخباري وافتقدت هيللا بينهم التي سافرت إلى السويد قبل سفري ببضع ساعات وأهدت إليَّ علبة صغيرة، وطلبت مني ألا أفتحها قبل وصولي إلى دمشق.الرحلة الجوية بين كليفلاند ونيويورك استغرقت ساعة وعشرين دقيقة قطعتها وأنا لاه بأفكاري وبتنظيم أوراقي الكثيرة المبعثرة في حقيبة يدي: أوراق شحن كتبي، والفائض من ثيابي بحراً، والمغلف الكبير الذي يتضمن مختلف الوثائق والشهادات التي حزت عليها في السنوات الماضية، ثم تذكرة السفر من نيويورك إلى بيروت على طائرة (بان أميركان). وضعت التذكرة في جيبي ورجعت إلى ذكرياتي في كليفلاند بينما كنت أتناول قدحاً من الكولا المثلجة وإذا بي أحاسب نفسي وأتفحص مشاعري متسائلاً: هل أنا راضٍ عما فعلت؟ هل أنا سعيد حقاً في هذه الساعة؟ ولماذا لا أشعر بالارتياح والبهجة؟ فقلت لنفسي زاجراً: كفاك تطلعاً إلى الماضي يا عصام، الكهول والشيوخ وحدهم هم الذين يعيشون في الماضي وأنت شاب لا يليق به إلا النظر إلى المستقبل. لقد ارتحت إلى هذا الحوار الذاتي

وتلهفت على الغد بكل قواي الفكرية والعاطفية، إذ وجدت أنني قوي، مزود بقسط كبير من الشجاعة لمعاناة ما يمكن أن يجابهني من كوارث: الفقر، الإخفاق، الجوع، المرض و... و... ما عدا الذلّ! أدركت بوضوح أنني لا أستطيع احتمال الذلّ، ولا حتى مجرد التفكير بأنه يمكن أن يقترن بوجودي وأنفاسي مهما تكن الأسباب والظروف، فلا بدّ لي من أن أعيش عزيزاً، أينما كنت، ولا سيما في وطني لكي أشعر بالسعادة. ولكن... كيف نستطيع أن نعيش، نحن العرب، أعزاء قبل أن نرفع عن كواهلنا ما لصق بها من ذلّ في السنوات الأخيرة؟ عندئذ توضحت في فكري الحقيقة التي كنت أبحث عنها فأدركت أنه إذا تأخر أحدنا عن رؤية هذه الحقيقة وجب علينا أن نساعده على اكتشافها ألا وهي واجبنا بالكفاح جميعاً من أجل رفع الذل عنا، فالقضية الفلسطينية ليست قضية شعب بمفرده أو أفراد، إنها قضية شعوب عربية متعددة، إذا ناضلت وانتصرت استطاع أبناؤها أن يسعدوا ويعتزوا وإن استكانت واستسلمت لحق بهم الذل جميعاً، مقيمين في الأرض العربية ومغتربين.

انتظرت الطائرة التي حملتني إلى الشرق العربي عن طريق باريس ساعتين في مطار نيويورك ولكني لم أشعر بوطأة الانتظار إذ كنت مستغرقاً بقراءة صحيفة "نيويورك تايمز"، والمقالات التي نشرت فيها عن قضية الشرق الأوسط. لقد شرح المطلعون السياسيون ملابسات القضية، وعبروا عن آمال الرئيس الأميركي وحكومته بالتوصل إلى حل سلمي لها، كما

أنهم وصفوا، أثر زيارة "جولدا مائير" التي قامت بها إلى الولايات المتحدة الأميركية حديثاً، والمقابلات التي أجرتها فيها، وما نجم عنها من اتفاقات عقدتها للتسلح، وأموال جمعتها للدفاع عن إسرائيل، وحمايتها من اعتداءات العرب "على حدّ قولها". لقد هزني ما قرأت في الصحيفة المذكورة عن العالم العربي الذي يستضعفونه، وعن نعت الفدائيين بالارهابيين، فالتحيز واضح في صحافة هذا البلد، ورئيسه راغب، على ما يبدو، في توطيد السلام في منطقتنا بعد أن حلّ السلام في فيتنام. ولكن، هل يعتقد الرئيس نيكسون أن مظاهرات الاستنكار التي قام بها شعبه والحملات الشديدة التي شنها أصحاب الضمائر الحية في سائر بلاد العالم ضد استمرار حرب فيتنام، قد خفيت على العالم، وهل يظن أن تغذية بلاده تلك الحرب الطاحنة مما يشرفها ويضيف أوراقاً من الغار على تمثال الحرية فيها؟؟

قرأت تلك المقالات وفهمت أن الدول الكبيرة، أقصد المعسكرين اللذين يتحكمان بمصير العالم: الشرقي والغربي، قد اتفقا على توزيع مناطق النفوذ في الشرق الأوسط، والسيطرة على ينابيع البترول فيه، قبل الاتفاق على إعلان رغبتهما في إيجاد تسوية سلمية فيه. نحن إذن أحجار على رقعة الشطرنج يحركها اللاعبون المهرة، حسب أهوائهم، وفقاً لحسابات يضعونها للفوز بالغنائم! فإذا شاؤوا أن تُهدم بلادنا، ويموت شبابنا حركوا نار الحرب وأذكوها، واتهمونا بأننا البادئون، والبادىء أظلم... وإذا شاؤوا

أن يعقد الصلح بيننا وبين إسرائيل المغتصبة فرضوه علينا وجعلوها في مركز القوة، وغضوا الطرف عن تمردها على قرارات مجلس الأمن، وعن اعتداءاتها الوحشية على الأطفال والشيوخ والسكان الآمنين، منذ وقعت مذبحة دير ياسين المفجعة في سنة ١٩٤٨، حتى آخر اعتداءات على مراكز الفدائيين في كل من مصر وسورية ولبنان والأردن بعد سنة ١٩٦٧. فهل يحسبون أننا مغفلون إلى هذا الحد؟ بئس ما حسبوا وبئس ما قرروا! فنحن وإن كنا ضعفاء ومنقسمين ومفتقرين إلى الدعاية، لسنا أمواتاً على الأقل، ولا ينقصنا الوعي ولا الجرأة لأخذ حقوقنا بالقوة. ربما يأتي يوم نتحد فيه فنستعيض من السلاح البري والجوي، من الدبابات والرادار وطائرات الفانتوم، وما سيخترعون غيرها من أسلحة الدمار بإيماننا وبسواعدنا، وما نجد ونحن في طريقنا إلى فلسطين رجالاً ونساء، شرط أن نستغني عن حياة خمسة ملايين منا، لا عن مليون فحسب، لاستعادة أرضنا المقدسة، وكرامتنا وعزتنا، عندئذ فقط نستعيد مكاننا في صدر الأرض.

لقد كان الدم يغلي في عروقي عندما سمعت النداء يدعو ركاب الطائرة المتوجهة إلى باريس إلى الصعود إليها فنهضت أتأبط الجريدة، وتوجهت إلى مركز الأمن العام حيث رمقني الموظف بازورار لحظة قرأ اسمي العربي واطلع على جنسيتي، ولكنه ختم جواز سفري بحركة تأفّف، فأشعرني بأنه يهودي صهيوني. لكم أنا سعيد بمغادرة هذا البلد الذي يعجّ بالصهاينة ويرزح تحت سيطرتهم في جميع مرافقه الحيوية، من الاعلام إلى

الاقتصاد، والصناعة، والتجارة والفن الخ... ومن يدري لعل الولايات المتحدة ستضيق بهم ذرعاً، ذات يوم، وتهبّ في وجه طغيانهم، وعنجهيتهم، وماديتهم المسمومة، هبوب الاعصار المدمّر في بعض مناطق العالم، فترتاح منهم، وتريح العالم من شرورهم!

استلقيت على مقعدي بعد أن أقلعت الطائرة، ورحت أتصفح رواية بوليسية ابتعتها من المطار ما لبثت أن شدتني إليها وجعلتني أنسى عضّة الجوع في معدتي إلى أن أتت المضيفة المبتسمة بصينية الغداء. رحت أفكر، وأنا ألتهم طعامي، بالفارق البعيد بين نزعة أبناء بلدي السلمية في الحياة وبين النزعة الإجرامية في العالم المتحضر. لم أسمع، بعد، بكتّاب عرب وضعوا روايات البوليسية، وندر أن قرأت في الصحف السورية وصفاً لحوادث إجرام رهيبة كالتي تحتل صفحات متعددة في صحافة هذه البلاد.

فرغت من قراءة الرواية قبل هبوطنا في مطار (أورلي)، وتأسفت لأني سأحط على الأرض الفرنسية وأغادرها من دون أن أتعرف إليها. كان بوسعي أن اقضي في باريس أسبوعاً على الأقل ولكني آثرت التضحية بهذه المتعة القصيرة على سرقة هذا الأسبوع من أمي وأخوتي وأصدقائي فبعد أقل من عشر ساعات سأضمهم إلى صدري، في مطار بيروت الدولي لأن رحلة البوينغ الأميركية تنتهي فيه، وسوف أطلب منهم شيئاً واحداً قبل العودة إلى دمشق بالسيارة: أن نذهب إلى مطعم "العجمي" أو "البحري"، فأنا لا أخجل من الاعتراف بشوقي إلى الفول والحمص والقطايف.

بين باريس وروما تناولت العشاء وتحدثت إلى سيدة فرنسية مسنة في غاية الهيبة والجمال. كانت جالسة في جواري فعرفت أن لها ابنة تدرس الفنون الجميلة في جامعة "فلورانس" متزوجة من مهندس إيطالي، وأنها ذاهبة لقضاء شهر معهما. السيدة جارتي تعمل في دار فرنسية للنشر لذا حدثتني عن آخر منشوراتها وعن القصة الحديثة وعن التطور في الأدب الغربي نثراً وشعراً بعد الحرب العالمية الثانية. وحدثتها عن مشاهداتي في الولايات المتحدة وعن بلادي فعلمت أنها تعرفها إذ أقامت في بيروت سنة ١٩٤١ مع زوجها الذي كان مديراً للأمن العام إبان الانتداب. خشيت أن تكون ذات ميول معادية فكنت حذراً في حديثي، ولكني سررت إذ علمت أنها تعرف مساوىء اليهود وتكره أخلاقهم (إذا كان لديهم أخلاق..) على حدّ تعبيرها، وتأسف كثيراً عندما ترى ساحة الدعاية في العالم خالية من العرب يكتسحها الصهاينة لأن الظروف العالمية، في رأيها، مواتية في الوقت الحاضر لتأييدنا وذلك لوجود مناصرين لنا بين طبقة الشباب الحر، في كل مكان، في فرنسا، وإيطاليا، وغيرها، وأذكر أنها قالت:

ـ (لكنكم غائبون عن الساحة، والمثل الفرنسي يقول: "الغائبون مخطئون أبداً").

في حوالي الساعة الواحدة صباحاً توجهت نحو لبنان، فقلت لنفسي: أمامك رحلة ثلاث ساعات ونصف الساعة لا بد لك فيهما من أن تستريح، ولو بإغفاءة قصيرة. فتحت ستارة النافذة الصغيرة في جواري فلم أشاهد إلا الظلام، لا نجوم في السماء، ولا قمر، ولا بصيص نور،

فأغلقت الستارة وتلفتّ حولي، فلم أر إلا مسافرين متمددين على مقاعدهم يستعدون للنوم، فعزمت على مجاراتهم. أطبقت أجفاني وإذ بالخواطر المحمومة تجول في رأسي: حرب فيتنام انتهت بعد عشر سنوات من القتال المستميت، وبعد أن قدم فيها الشعب الأميركي زهرة شبابه، والشعب الفيتنامي البطل ملايين الشهداء، ولكن من أجل من؟ ولماذا؟ المهم أنه ثبت ثبات الجبابرة وتحدّى أكبر القوى في العالم وما ذلك إلا بفضل إيمانه بقضيته، وشغفه بأرضه وكرامته، واستعداده المدهش للفداء! وحربنا مع إسرائيل ستتوقف إذا ما... ما أطول الجملة، بل الشرح بعد: "إذا ما"! أود أن أقول كل شيء، أن أشرح كل شيء، وأن ألمّ بكل شيء، فإن ما يجري ، هنا وهناك في وطني العربي الكبير في الوقت الحاضر، يرديني في الاستغراب، ويدفعني إلى الرفض دفعاً! لكم أود أن أموت الآن، في هذه اللحظة موتاً موقتاً، أي أن أديّن ملك الموت ما تبقى من حياتي (وأنا على مشارف الثلاثين من عمري) شريطة أن أعود إلى الحياة بعد عشرين عاماً ، أو خمسين، أو أقل، أو أكثر، لأعيش على الأرض عزيزاً، منتمياً إلى أمة مظفّرة، توحّدت فعلاً لا قولاً فغلبت المعتدين، واسترجعت فلسطين، وكرامتها بل مكانتها في العالم. إن أمنيتي هذه صادقة كل الصدق، حبذا لو تتحقق! لا أحد يستطيع حل معضلاتنا سوانا، وقد كفانا ما نعاني من انقسامات داخلية وتوكل على الآخرين، وكفانا تصريحات وشكاوى...

هذيت بهذه الخواطر وأنا في الجو أدنو من أرض بلادي بسرعة مذهلة. نام المسافرون وبقيت وحدي صاحياً مستمتعاً بالسكون الذي ران

على الطائرة، وسعيداً بوحدتي لأني لم أكن وحيداً بالفعل. صاحبتني الخواطر والأفكار فنقلتني من موضوع السياسة الدولية إلى مواضيع خاصة، منها بالطبع ما يتعلق بممارسة الطب في وطني، ومنها كذلك ما يتصل بحياتي العائلية والاجتماعية المقبلة، وشمل الحديث أمي وأخوتي، ورفاقي: سالم ونزار وسمير وناديا، ولكن وجه سالم كان أكثر الوجوه وضوحاً في مخيلتي إذ تمثلته واقفاً أمامي بدمه وروحه يحدثني، ويبتسم، ويسخر، وينتقد.

لا شك في أني ضقت ذرعاً بالخواطر والرؤى لأني تمنيت أن تقفل ذاكرتي نوافذها دون تسرب الخواطر والأفكار فيها لكي أستريح قليلاً، قبل الوصول. نظرت إلى ساعتي في ضوء المصباح الخفيف، المثبّت فوق النافذة، فوجدت أنه لم يبق بيني وبين لقاء أهلي وأحبائي سوى ساعتين، فمددت رجلي ودعوت النوم إلى تملكي برغبة كبيرة ولكن عبثاً حاولت، فقد برزت في مخيلتي صورة هيللا التي آثرت أن تسافر إلى بلدها قبل رحيلي لتجنب حرقة الوداع... كنت أحفظ هديتها في جيبي، وبصورة عفوية جسستها بلذةٍ كبيرة وضغطتها: ثم تساءلت: تُرى ماذا تتضمن هذه العلبة الصغيرة اللطيفة؟ لا ريب في أنها تحتوي بضع كلمات مع الهدية، تحمل لي تمنياتها القلبية بالنجاح في عملي وبانتصار بلادي. لا! لن افتح العلبة قبل وصولي إلى دمشق، كما وعدت، ولكم أحسنت في إرسال بطاقة بريدية لها من مطار روما فأنا لم أتجاوز الحقيقة عندما قلت لها فيها " إن

غياب من نحب أقوى من حضـوره أحيانـاً". وكذلـك أرى أن سـلطة الذين ينتظرونني في مطار بيروت أشد من سلطان النوم، في هذه الساعة، فأنا لم ألق أخوي نبيلاً وبشاراً، ولا أختي هدى منذ سبع سنوات، فهـل تغـيروا كثيراً؟ أما أمي فقد وجدتها يوم زارتني قبـل أقـل مـن ثـلاث سـنين كمـا تركتهـا: هادئة، واعية، يفيض قلبها حباً وحناناً وطيبة، فلمن أنا مشـتاق أكـثر؟ كنـت أحلم بنبيل أحياناً، ربما لأنه أقرب أخوتي إلي سناً وأشـبههم بي طبعاً، لكـم سأسعد بزيارته في صيدليته الجديدة في بلدة: "دوما"، أما بشـار فـإني سـأبذل جهدي لإقناعه بخوض معترك الحياة جدياً ما دام أنه قـد أنهـى خدمـة العلـم، وتجاوز مرحلة الطيش والتقليد. وأما هدى الحبيبة، فقد كبرت وأوشـكت أن تتخرج هذا العام من كلية التجارة، وربما تتوظـف وتـتزوج قريباً، لهـذا كلـه أشعر بالفرح لأني سأغدق عليهم جميعاً حبي، وأسعد بقربهم وأستأنس بعـد سني غيابي الطويلة. تخيلت نفسي بطلاً يقف بينهم، يستقطب الأنظار، ويحاط بشتى أنواع التكريم، ويحـار بـأي حديـث يبتـدىء... فغمرنـي شـعور بـالزهو والرضا عن النفس، ولكني تنبهت إلى أن غروري هو الدافع إلى الفرح والرضا، فصممت على نبذ الغرور من نفسي، واسـتحقاق التكريـم بإثبـات رصـانتي في الحديث، وتميزي بمعاملة جميـع الناس كمـا أحب أن يعاملوني. عندئذ نهضت من مقعدي أملاً في أن أجد سبيلاً إلى النوم إذا ما غيرت وضعية استلقائي عليه، فأخفقت مجـدداً، وتحققـت مـن أنـي مرهـق عصبياً إرهاقاً شـديداً سببه تلك

الساعات الطويلة التي قضيتها في الجو، والتفكير بما خلفت ورائي، وما ينتظرني، والتفكير أيضاً بالساعات الست التي ضاعت عليّ بين الولايات المتحدة وأوروبا لاختلاف التوقيت بين القارتين. تُرى هل ضاعت حقاً؟ كل هذا جعلني متوتر الأعصاب إلى درجة لا تنفع فيها الإرادة وحدها، لذا ضغطت زراً قريباً مني فأتت المضيفة، طلبت منها كوباً من الماء وحبة منوم صغيرة فقدمتها بابتسامة رأيت فيها من الرقة والبشاشة ما ساعدني على استرجاع هدوئي تدريجاً والاستلقاء بلا تفكير.

لا أذكر حقاً متى غفوت ولكنني أذكر أن الرؤى والأفكار ازدحمت في رأسي، وإني رأيت في منامي سالماً (فيلسوفنا) ماثلاً أمامي يسألني معنفاً:

ـ وبعد يا عصام، بل عفواً يا دكتور عصام، أما زلت قادراً على الوقوف والعمل؟ أما سئمت منظر ردائك الأبيض الذي لم يفارق جسمك، ليل نهار، منذ عشر ساعات، ومن القفاز النايلون في يديك؟ أما تعبت من منظر لُطَخِ الدم عليهما، ومن رؤية المشارط والعقاقير؟ أما أمضك بكاء الأطفال الجرحى، وأنين المصابين الذين ما برحت تسعفهم، بعد وقوع العدوان الأخير على أرضنا، في هذا المستشفى البدائي المتنقل؟

فقلت له منفعلاً:

ـ دعني من أسئلتك أرجوك، دعني منصرفاً إلى عملي فالوقت ثمين، والتطوع للخدمة أفضل من الكلام لأننا، كما ترى، في حاجة إلى مساعدين.

ورأيت نفسي، كما وصفني سالم تماماً، مستغرقاً في عمليات الإسعاف، لا أحس بالألم، ولا بالسأم، ولا بالتعب، ولكني سمعته يقول بسخرية يشوبها الألم:

ـ إني أتحرق شوقاً إلى العمل والخدمة فهل تقبل خدماتي على مسؤوليتك؟ أنا مصنّف يا صديقي، مصنّف في وطني بين الرجعيين المنبوذين، ظلماً وبهتاناً، لأني لست حزبياً، لأني مفكر حرّ، لا لون له، فلست أحمر، ولا أبيض ولا أصفر...

وأذكر أني بذلت جهداً كبيراً لأستوعب ما قال سالم ولأردّ عليه، ولا أدري إذا كنت قد نطقت بالجواب التالي، أو إذا ركبت كلماته في ذهني المشتّت:

ـــ أحمر... أبيض... أصفر... ماذا تقول؟ إني لا أرى شيئاً يا سالم، فالظلام مخيّم علينا الآن، والألوان لاتتميز في الظلام...

وبعد قليل أدركت بأن مفعول الحبة المنومة قد أثر في دماغي، وإني قد غفوت فترة من الزمن، فما كان أجمل صحوي على جرس صوت المضيفة الصافي الحنون يقول، عبر مكبّر الصوت:

ـ (سيداتي سادتي أحييكم بإسم الطيارين والمضيفين أعلمكم بأننا سنهبط في مطار بيروت الدولي بعد ربع ساعة، أرجو أن تربطوا أحزمتكم، وأن تكفوا عن التدخين. أشكركم وآمل أن تكونوا قد استمتعتم بهذه الرحلة).

دمشق في ١٧ تشرين الأول ١٩٧٣

من دمشق التي تحارب بفرح وحماسة، من عرين العروبة الصامد أكتب هذا الفصل وقد مضى على عودتي إلى الوطن ستة أشهر تقريباً. إن عواصم العالم العربي كلها تشهد ولادة فجر جديد منذ السادس من هذا الشهر لأننا نحارب إسرائيل متضامنين، متحدين، من أقاصي المشرق العربي حتى أقاصي المغرب العربي. ولقد بدد هذا الفجر الظلام الدامس الطويل، وفاجأنا بضيائه الوهاج، مثلما فاجأ العالم كله.

التحقت بالجندية وها أنا أعمل طبيباً في الجبهة. جئت إلى دمشق هذا المساء لأسباب قاهرة، ومررت على أهلي فوجدت أمي وأختي هدى، والذين اتصلت بهم، في أحسن حال نفسية، مع أن أمي وأختي تقيمان في البيت وحدهما منذ بداية المعارك، لأن كلاً من نبيل وبشار مستنفر، لا أحد يعلم عنهما شيئاً. قضيت مع أهلي ساعتين في أعذب نشوة وأصدق سعادة بسبب ما سمعت عن قوة أعصاب المواطنين جميعاً وفرحهم بالقتال، وابتهاجهم، نساءً وأطفالاً ورجالاً بوحدة الصفوف العربية وبقدرة جنودنا على مطاردة طائرات الميراج المغيرة. تقول أمي وأختي هدى وسالم، الذي كان في زيارتنا قبل قليل ليتفقدهما وفوجىء بلقائي، إن سكان دمشق في حال من التفاؤل لم يشهدوا لها مثيلاً فيما خلا من السنين، لا أحد منهم

يفكر بالنزول إلى ملجأ عندما يدوّي أزيز الطائرات، أو إنذار الخطر، بل يسارعون إلى الشوارع أو إلى سطوح العمارات لإسعاد عيونهم برؤية طيارينا، بل نسورنا الشباب، المستبسلين في القتال الجوي، وبمنظر الصواريخ (سام ٦) التي يطلقها جنودنا البسلاء لمطاردة طائرات العدو وإنزالها، فقد سقط منها في الأجواء الدمشقية والسورية حتى غاية اليوم عشرات. لذا أتيح للكثيرين في دمشق وضواحيها مشاهدة طيارين اسرائيليين يهبطون بالمظلات، ومشاركة القوى العسكرية للبحث عنهم في الضواحي والأرياف، كما أتيح لبعض أطفالنا أن يتفقدوا حطام طائرات للعدو وقعت، أو احترقت في أراضينا، فالناس هنا في فرحة عارمة، وفي ذروة النشوة والحماسة، لا يخشون الخطر، ولا التضحيات، ولا الموت. إن أكبر دليل على ابتهاجهم بالحرب، واستعدادهم للفداء، تسابقهم، يوم ألقت الطائرات الإسرائيلية القنابل على أحياء دمشق السكنية، ظهر التاسع من الجاري، إلى الشوارع والأحياء المصابة لإغاثة المتضررين ومساعدة السلطات في عمليات الإسعاف، والإشراف على الأمن.

إني أكتب هذه الصفحات في غرفة أختي هدى بعد أن ودعت سالماً واستأذنت أهلي للاستراحة ساعة من الزمن فقبيل الفجر سأرجع لكي أنضم إلى المحاربين في الجبهة. أما سالم فإنه المستاء الوحيد بين من عرفت لأنه معفو من خدمة العلم لكونه وحيد أبويه، ومع ذلك لم يقف مكتوف اليدين في هذه الأيام الحاسمة بل وضع نفسه وسيارته بتصرف

إدارة أحد المصحات، وتطوع، مع طلاب المدارس، في الدفاع المدني منذ السادس من تشرين الأول فقام معهم بمهمات مختلفة كحراسة الأنقاض في "أبو رمانة" وشارعي "المهدي بن بركة" و"المالكي"، حيث نزلت قنابل العدو، وخرّبت دوراً ومؤسسات كثيرة ذهب ضحيتها بعض الأجانب المقيمين فيها، منهم موظفو المركز الثقافي الروسي، وبعض موظفي الأمم المتحدة، وعدد كبير من الأسر الآمنة، والمرضى المقيمين في "مستشفى الشرق" الذي يقع أمام مبنى: "الأرصاد الجوية".

ذكرت صديقي سالماً كثيراً في الأيام الماضية وأنا أقوم بعمليات إسعاف سريعة، وقد رويت له الليلة أن الحلم الذي رأيته فيه، ليلة عودتي في الطائرة من الولايات المتحدة قد توضح في هذه الآونة بالذات، إذ تضافرت جهود الشعب والجيش، وانجلت حقيقة الشعب العربي وصفاته النبيلة. وصفت لسالم ولأهلي ولجيراننا كيف أننا نقضي في الميدان أجمل أيام حياتنا وأشرفها، لا فرق بين سائق الدبابة، أو حامي الذخيرة، أو حارس الصاروخ، أو قائد الطائرة، أو طبيب الفرقة، أو ممرض الجنود، ولا فرق بين السوري والعراقي والأردني والجزائري والمغربي والتونسي والسعودي وغيرهم، لا في الهدف، ولا في الإيمان، وقلت إن امتزاج الدم العربي في المعارك جعلنا قلباً واحداً، وأملاً واحداً، وتصميماً أكيداً على المضي في القتال، وبذل الروح فداء للوطن العربي كله. وأنا لا أغالي إذ أقول إننا مستعدون جميعاً للاستشهاد في الجبهة، وإن همنا الكبير أضحى

النصر والعمل المشترك لكي يسترد عالمنا العربي حريته ومكانته التي أضاعها حين ضيع نفسه، والتي كاد ييأس من استردادها.

لقد سألت فوراً عن نزار وسمير فعلمت بأن أخبارهما مقطوعة لأنهما في الجبهة أيضاً. أين؟ لا أحد يعلم، وكل ما تعلمه أمي أن ناديا، زوجة صديقنا سمير تطوعت للتمريض في المستشفى الفرنسي، وأن عروس نزار تعمل ليل نهار مع أعضاء جمعية "أولاد الشهداء"، أما أختي هدى فقد التحقت بالاتحاد النسائي منذ مطلع الصيف وهي تقوم بما يُطلب منها من مهمات كل يوم، في حين أن أمي، وخالتي عائشة، (أم منى) تقضيان ساعات كل صباح في مشغل "الهلال الأحمر" للقيام بالواجب.

رأيت الدمع يبرق في محاجر أهلي والجيران وسالم ساعة كنت أحدثهم عن وضعنا ومشاعرنا في الجبهة، رويت لهم حوادث بطولية مؤثرة كنت لها شاهداً، وقلت لهم، في جملة ما قلت، إن قضاءنا على أسطورة "الجيش الذي لا يقهر" منذ الساعات الأولى التي باغتنا فيها العدو بحربنا الجريئة التي خططتها أدمغة الحكام العرب المخلصين فأثبتوا لنا وللعالم بأنهم على قدر المسؤولية، إن مجرد قضائنا على تلك الأسطورة هو أكبر نصر حققناه حتى الآن، وأعمقه تأثيراً في حاضرنا ومستقبلنا. يسمون هذه الحرب "حرب رمضان" و"حرب تشرين" والحق أنها حققت ما يشبه المعجزة، فمن كان يظن أن في وسع الجيش المصري عبور الضفة الغربية من القناة بساعات قليلة؟ لقد تمّ العبور الرائع بفضل الإيمان والثقة بالنفس

والتصميم على الثأر والنصر، وبهذه الروح تم الاستيلاء على "خط بارليف" الذي تبجّحت إسرائيل بمناعته، كما كانت تفعل دائماً لإضعافنا، والقاء الرعب فينا... ومن كان يحسب أننا هنا في سورية، وفي "الجولان" المحتلة بالذات، نستطيع الاستيلاء على أكبر محطة للرادار أقامها العدو على سفح "جبل الشيخ"، بالقرب من حدوده، وحصّنها أعظم تحصين؟ لقد استولينا عليها وقت الغروب، في اليوم الثاني لحربنا هذه، وما زلنا نخوض معارك ضارية، في مختلف المناطق، برية وجوية، لنحرر بالقوة ما فقدناه بالقوة. وقلت لهم إن قوات عربية، عسكرية وطبية، هرعت إلينا من مختلف البلاد العربية الشقيقة، وهذا وحده يعني أننا حققنا وحدة صحيحة لأول مرة في تاريخنا الحديث، على الجبهات الداخلية والخارجية معاً، وكأن صوتاً ربانياً دعانا إلى التضامن، وتجاوز العقد السياسية، الرجعية والتقدمية على حد سواء، التي كانت تمنع انطلاقتنا المرتجاة، وتؤخر مسيرتنا. ولقد استجبنا إلى النداء المنقذ في كل مكان، وهدمنا، في أيام معدودات، الحائط العملاق الذي رفعته في الماضي القريب العقد والخلافات، والنزوات العابرة، وها نحن اليوم قد هدمنا بهدمه الحواجز المصطنعة التي فرقت بيننا، وأردتنا في هوة سحيقة لم نتنفس فيها غير سموم الكراهية والتمزق.

أحس، في هذه الساعة، أن الأقدار كانت بي رحيمة إذ سمحت لي بتفقد أهلي بضع ساعات. لقد أصيب ضابط عربي في صدره، يوم أمس، في إثر معركة ضارية تجابهت خلالها دباباتنا ودبابات العدو، وهو

أخ سعودي من بين المحاربين العرب الذين أتوا من مختلف البلاد الشقيقة للانضمام إلى الجيش السوري في الجبهة، والمشاركة في الدفاع عن أرضنا، واسترجاع ما اغتصب منها ظلماً وعدواناً. إن إصاباته الخطيرة قد استدعت نقله إلى المستشفى العسكري في دوما، بالقرب من دمشق، وإجراء عملية ملحة له، فأُمرت بمرافقته، ولولا ذلك لما قُدّر لي أن أزور أهلي لأن تغيب أي مجند عن مركز عمله في الميدان أمر مستحيل إبان الحرب. كان من فوائد هذه الزيارة أنني تأكدت من صمود المدنيين وسررت من أنهم لا يقلون ابتهاجاً عن الجنود بالموقف العربي الموحد، وبروائح النصر، وبشائر العافية المنبعثة منه.

أرى أن موعد وصول سيارة الجيب التي ستعيدني إلى الجبهة قد دنا لأن الساعة قد تجاوزت الثانية صباحاً. غادرت غرفة أختي قبل قليل وخابرت المستشفى العسكري فاطمأننت إلى حالة الضابط السعودي، وبما أني لا أشعر بحاجة إلى النوم فتحت مذكرتي القديمة وأعدت قراءة فصلها الأخير، ذلك الذي دوّنت فيه مشاعري وهواجسي بينما كانت الطائرة تحملني من الولايات المتحدة إلى الأرض العربية. ابتسمت عندما وقفت على أمنيتي السابقة في أن أُديّن ملك الموت ما تبقى من حياتي، شرط أن يعيدني إلى الحياة بعد أن تنتصر بلادي على الذل! لقد غمرني الفرح لحظة قرأت تلك الصفحات، عقبه فوراً إحساس بالذنب إذ بدا لي أن الإنسان لجوج، صبره على المكاره ضعيف، ويأسه قوي، فأنا لا أخفي أن الخوف

من المستقبل كان يتملكني بعد رجوعي إلى سورية وأن التردد بين الشك واليقين في أشهر الصيف الماضي كان ينتابني ويعذبني، بل كان يلهو بي ويقذفني كأنني كرة جوفاء. لقد أُصبت، بعد عودتي، بخيبات أمل متلاحقة بسبب بطء سير المعاملات "الروتينية" التي كان لا بد من إنجازها قبل الالتحاق بخدمة العلم، وبسبب اصطدامي بعقليات متحجرة، ونزعات انهزامية كنت أحاربها بشدة، وأرفضها بعنف، ليقيني بأن خطرها على مجتمعنا ومستقبلنا لا يقلّ عن خطر انتشار الأمراض الخبيثة في جسم الإنسان. ولا أخفي أيضاً أني كثيراً ما كنت أنفرد، إذ ذاك، بهدية هيللا التي حمّلتني إياها يوم غادرت كليفلاند وأوصتني ألا أفتحها قبل وصولي إلى دمشق. كانت الهدية حمّالة مفاتيح أنيقة وقد نقشت عليها اسمي على الشكل التالي: (عصام = نجاح = نصر = سعادة) وكانت مرفقة بأصغر وأجمل كتاب رأيته في حياتي، عنوانه: (خواطر صينية)، إنه صغير الحجم، بني اللون، محلّى بالذهب، ومطبوع في سويسرا، وأما صفحاته فغير مرقمة ولكنها من الورق الرقيق النفيس. كنت الجأ إليه في أوقات الانقباض لاستنبط منه الأمل والقوة وذلك لما يتضمن من حكم بليغة، ودعوة إلى الاحتفاظ بالتفاؤل، وتحذير من اليأس لأنه ألدّ أعداء الإنسان! هيللا لا تغيب عني أبداً، ورسائلها ما زالت ترد إلي وتحمل معها حرارة المشاعر ونفحات الود، ولكم أود أن أعرف تأثير الأحداث الأخيرة فيها الآن ولكنني متأكد من أن اهتمامها بها، وأملها بنتائجها الطيبة كبيران.

رباه! لأول مرة، منذ عودتي من أميركا، أحب أن أصلّي، إني أشعر بحاجة إلى الصلاة فاقبلها مني يا ربي، واغفر لي شكوكي السابقة، وأعِنّا على متابعة القتال وإحراز النصر فنحن على بلوغه مصمّمون، وعلى التضامن مثابرون! لقد هديتنا يا إلهي إلى سُبُل الرشاد ففهمنا جميعاً، ملوكاً ورؤساء، قواداً وجنوداً، رجالاً ونساءً وأطفالاً أن توحّد قلوبنا ونوايانا، ودمائنا وأموالنا هو وحده الطريق إلى النصر. دعنا يا رب نواصل مسيرتنا على هذه الطريق، أعنا على نبذ الأحقاد، وتجاوز الأنانيات لاستعادة الكرامة العربية والسؤدد. إني أعلم جيداً أن الانتصار كلمة كبيرة، تنطوي على معان وأبعاد، منها الانتصار على النفس، والانتصار على التخاذل، والانتصار على العدو، وهل العدو سوى من يعتدي على حق الآخرين وحريتهم؟ ولكن يكفينا أننا هزمنا الهزيمة فينا اليوم ونحن بعد في أيام الحرب الأولى، ومحونا عار حزيران، فحمداً لك يا رب!

إني أشعر، في هذه الأيام التاريخية، بأهمية المسؤولية الملقاة على كواهلنا نحن الشباب، وأعتزّ بحملها، وأرى بوضوح أن رفض جيلنا الظلم، والانقسام، والتخلف، هو رفض شريف، بنّاء، وأن دون بلوغ أهدافنا القومية والإنسانية المقدسة تضحيات كثيرة، وعقبات لا بد من تذليلها بتخطيط بعيد المدى وثبات. أما الآن فلقد أوشكت سيارة الجيب أن تصل وسوف أستأنف الجهاد مطمئناً إلى أننا استرجعنا ثقتنا بأنفسنا، وحققنا الوحدة العربية الشعبية التي تفرض الوحدة السياسية. لقد أضحينا نوقن

بأن ما يصيب الإنسان العربي في القدس أو غزة أو مصر، في بلاد الخليج أو بلاد المغرب العربي كله، في دمشق أو بغداد أو جدة أو الأردن، في طرابلس أو صور أو الخرطوم، يصيب العربي في كل مكان سواء أكان مقيماً على أرض عربية، أم مغترباً عنها.

تُرى ماذا تفعل ابنة عمتي منى في هذه الساعة؟ إن صورتها لا تفارق مخيلتي في هذه الأيام، تُرى هل تفكر مثلي بأننا وضعنا، في حربنا هذه، الحجر الأساسي لمخطط عربي صحيح لا أثر للارتجال والنفاق فيه، وأنه بحجم طموحنا، وحجم المستقبل الذي نريده لنا ولأولادنا؟؟؟

****

أعمال المؤلفة

١ ــ **(يوميات هالة)** ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٥٠ وأعيدت طباعته ١٩٩٥.

٢ ــ **(حرمان)** ــ مجموعة قصص موضوعة ومعرّبة ــ دار المعارف بمصر ١٩٥٢ .

٣ ــ **(زوايا)** ــ مجموعة قصص وحكايات ــ دار المعارف بمصر ١٩٥٥.

٤ ــ **(الوردة المنفردة)** ــ شعر باللغة الفرنسية ــ بوينس آيريس ــ الأرجنتين ــ ١٩٥٨ .

٥ ــ **(نساء متفوقات)** ــ سير مكثفة لنساء شرقيات وغربيات ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٦١ تقديم الدكتور قسطنطين زريق.

٦ ــ **(عينان من أشبيلية)** ــ رواية ــ أذيعت على حلقات من الإذاعة البريطانية العربية بلندن ــ دار الكاتب العربي ــ بيروت ١٩٦٥ .

٧ ــ **(نفحات الأمس)** ــ ديوان شعر بالفرنسية ــ باريس: المقطوعات الأدبية وقد ترجم إلى اللغات الإيطالية والبرتغالية والاسبانية . صدر عام ١٩٩٦.

٨ ــ **(الغريبة)** ــ مجموعة قصص ــ مكتبة أطلس بدمشق ــ ١٩٦٦.

٩ ــ **(عنبر ورماد)** ــ سيرة ذاتية، الجزء الأول ــ دار بيروت للنشر ١٩٧٠.

١٠ ــ (في ظلال الأندلــــس) ــ محــاضرات ــ دار ألــف بــاء ــ دمشق ١٩٧١ .

١١ ــ (البرتقال المرّ) ــ روايـــة ــ دار النـــهار للنشـــر ــ بـــيروت ١٩٧٥.

١٢ ــ (الشعلة الزرقاء) ــ رسائل جبران خليل جـــبران المخطوطـــة إلى ميّ زيادة تحقيق المؤلفة والدكتور سهيل بديـــع بشـــروئي ــ الطبعة الأولى: دمشق وزارة الثقافة سنة ١٩٧٩ ــ والطبعـــات اللاحقة مؤسسة نوفل ــ بيروت وقد ترجمت هذه الرسائل إلـــى اللغات الفرنسية والانكليزية والايطاليـــة والاســـبانية وأعيـــدت طباعتها في لندن وباريس هذه السنة ١٩٩٦.

١٣ ــ (جورج صاند) ــ حبّ ونبوغ ــ ســـيرة ــ مؤسســـة نوفـــل بيروت ١٩٧٩.

١٤ ــ (ميّ زيادة وأعلام عصرها) ــ رسائل مخطوطة بينـــها وبيـــن أعلام النهضة العربية الحديثة لم تنشر من قبل ما بيـــن ١٩١٢ و ١٩٤٠ ــ مؤسسة نوفل بيروت ١٩٨٦ .

١٥ ــ (حزن الأشجار) ــ قصـــص قصـــيرة ــ مؤسســـة نوفـــل ــ بيروت ــ ١٩٨٦.

١٦ ــ (ميّ زيادة أو مأساة النبوغ) ــ ســـيرة النابغـــة مـــيّ موثّقـــة صدرت في جزأين عن مؤسسة نوفل ــ بيروت ــ ١٩٨٧.

١٧ ــ (الحب بعد الخمسين) ــ مذكرات عن حبّ الأحفـــاد وحـــرب لبنان . دار طلاس للنشر ــ دمشق ــ الطبعة الأولـــى ١٩٨٩ ــ الثانية ١٩٩٢ ــ الثالثة ١٩٩٣ وقد ترجمت هذا الكتـــاب إلـــى

اللغة الانكليزية الكاتبة الكندية السيدة شكرية ميرليت في فـــانكوفر وصدر عام ١٩٩٢.

١٨ ـــ (**نساء متفوقات**) ـــ طبعة جديدة موسّعة لسير نساء غربيـــات وشرقيات ـــ دار طلاس للنشر ـــ دمشق ١٩٩٠.

١٩ ـــ (**بصمات عربية ودمشقية فـــي الأندلـــس**) ـــ وزارة الثقافـــة بدمشق ـــ ١٩٩٣ .

٢٠ ـــ (**بوح**) ـــ ديوان شعر باللغة الفرنسية ـــ دار طلاس للنشـــر ـــ دمشق ١٩٩٣ .

٢١ ـــ (**عشية الرحيل**) ـــ ديوان شعر باللغة الاسبانية ترجم قصـــائده باللغة الفرنسية مجموعة من شعراء اسبانيا المعاصرين ـــ تقديـــم مؤسسة دار الشعر في مدريد الكاتبة النابغة السيدة فينا كـــالديرون ـــ مدريد ـــ ١٩٩٤.

٢٢ ـــ (**يوميات هالة**) ـــ طبعـــة جديـــدة ـــ دار العلـــم للملاييـــن ـــ بيروت ١٩٩٥.

٢٣ ـــ (**لطفي الحفار**) ١٨٨٥ ـــ ١٩٦٨ ـــ مذكراته حياته وعصـــره ـــ رياض الريّس للكتب والنشر ـــ بيروت ١٩٩٧.

- تحمل المؤلفة وساماً اســـبانياً : شـــريط الســـيدة للملكـــة إيزابيـــل الكاثوليكية منحتها إياها الدولة الاسبانية سنة ١٩٦٥.
- وفي عام ١٩٨٠ فازت بجائزة البحـــر الأبيـــض المتوســـط فـــي جزيرة صقلية من جامعة باليرمو .
- وفي عام ١٩٩٥ فازت بجائزة الملك فيصـــل العالميـــة لـــلأدب العربي وقد رشحها لها مجمع اللغة العربية بدمشق.



من الرواية

قالت الفتاة الأسوجية لحبيبها عصام:

(ما أغبى الناس الذين يرفضون الطفولة والانسياق مع الأحلام... وما أشقى الغرب، يا حبيبي، لأنه وضع سدوداً في مدنيته الحديثة، بين الإنسان وطبعه الفطري، وأخذ يرفض حق الناس بالبساطة والحلم والحرية. نعم قلت الحرية لأن الحرية ليست في رفع الأعلام وتوقيع الاتفاقات، وإطعام الناس وتشغيلهم فحسب... الحرية هي قبل كل شيء في السماح لهم بأن يحبوا بصدق وعمق، ويحلموا ويفرحوا، ويعيشوا بكرامة في أوطانهم، وبأن يهدموا أسوار الصقيع التي ترفع[illegible] الحضارة الآلية لتسدّ في وجوههم خيوط النور، ودفق[illegible] الحرارة، ونبضات الحب).

سلمى الحفار الكزبري